غـــابـــة الحـــــــق

للفاضل الشهير

فرنسيس فتح اللّه مراش

الناشر

دار الآفاق العربية

مراش، فرنسيس فتح الله
غـــابـــة الحـــق
ط 1 ، القاهرة : دار الآفاق العربية 2018
126 ص ، 20 سم

1- الروايات العالمية .

أ. العنوان 813

تدمك: 6 – 413 – 344 – 977 – 978
رقم الإيداع : 3738 / 2018
الطبعة الأولى
1439 هـ / 2018 م

جميع الحقوق محفوظة
لدار الآفاق العربية
نشر – توزيع – طباعة
55 شارع محمود طلعت من ش الطيران
مدينة نصر – القاهرة
تليفون : 00202- 22617339 تليفاكس : 00202-22610164

Emails: dar.alafk@yahoo.Com
selim.selim10@yahoo.com
daralafak2017@gmail.com
dar.alafk@Gmail.com

تعريف بالمؤلف

فرنسيس بن فتح الله مراش ولد فى يونيو عام 1836 وهو ايضا معروف بأسم **فرنسيس المراش** او **فرنسيس مراش الحلبى**.

هو احد كتاب وشعراء النهضة العربية من السوريين بالاضافة الى كونة طبيبا، له العديد من الاعمال التى تتناول العلوم والدين والتاريخ ويعتبر اول مثقف عربى عالمي بالاضافة الى كونة اول كتاب العصر الحديث.

ولد فى مدينة حلب التى كانت وقتها جزءاَ من سوريا العثمانية، ولد لأسرة عريقة، كان من التجار المعروفين بأهتمامتهم الأدبية.

كان والدة الكاهن **جبرايل مراش** مثقفا وساعيا دائما للحد من النزعات الطائفية داخل المذاهب المسيحية واسس مكتبة ضخمة ليعطى لاولادة الثلاثة **فرنسيس وعبدالله ومريانا** تعليما رفيعا خاصة في مجال اللغة العربية والأدب.

درس **فرنسيس** اللغة العربية ودرس الطب ومارس المهنة لمدة عام تقريبا ونشر عدة اعمال ادبية.

فى عام 1865 نشر **مراش** رواية (غابة الحق) وهى قصة رمزية حول شروط اقامة الحضارة والحرية والمحافظة عليهما.

يروى هذا العمل قصة رمزية عن رؤية مروعة عن حرب بين مملكة الحرية ومملكة الرق، ويحل النزاع بالقبض علي الملك الأخير ومحاكمته لاحقا من قبل ملك الحرية وملكة الحكمة، ووزير السلام، وأخوية الحب، وقائد جيش الحضارة، مع نيلسون مدينة النور الذين يمثلهم المؤلف كمجلس.

أعرب مراش في هذا العمل عن أفكار حول الأصلاحات السياسية والأجتماعية، مسلطا الضوء علي حاجة العرب لأمرين هما –المدارس الحديثة

الوطنية الخالية من الأعتبارات الدينية- والي أهمية اللغة التي تعد كثقل موازن للأختلافات الدينية والطائفية وبالتالي في تحديد الهوية الوطنية.

أنه بالمحبة قد قام العالم جميعهُ وبالمحبة تتحرك جميع الأشياء وبالمحبة يثبت كل المخلوقات علي حدته وبالمحبة يحافظ الكل علي أجزائه.

من كتاب غابة الحق.....

ومن أشهر أعماله –كتاب عن رحلة إلي باريس- نشر عام 1867.

كما كتب العديد من المقالات في الصحافة الشعبية وكتب كثير من القصائد والموشحات والزجل ومن أشهر أعماله:

- دليل الحرية الإنسانية عام 1861.
- تعزية الكررب، وراحة المعتوب عام 1864.
- كتاب دليل الطبيعة عام 1867.

في نهاية حياته التي عاني فيها كثيراً من تراجع صحته وفقدانه البصر ترك حياة الترحال وعاد إلي مدينته حلب حتي توفي عام 1873.

- 1 -
الحلـــــــم

ولما عرتني لجج الرقاد وجدت ذاتي متخطراً في برية واسعة، وكان يظهر لي عن بعد غابة عظيمة ذات أشجار ضخمة عالية بأغصان متكاثفة الأوراق ملتفة بعضها على بعض، بنوع أنه لا يمكن لأشعة الشمس أن تخترق قبابها الشاهقة الواصلة إلى كبد السماء لكثرة التفاف غصونها واندغامها، وكانت تفرش على الأرض بساطاً ثخيناً من ذلك الظل الذي لا يتقلص.

وبعد أن اجتهدت في المسير وتبطنت هذه الغابة رأيت نفسي من ثم محاطاً بسكوت عميق يتخلله من فترة إلى أخرى هدير مبهم يشبه دوى غدير متدفق ممزوج ببعض زمجرة من وحوش الغاب أو تغريدات من طائر السماء. فأخذت من طائر السماء، فأخذت أتتبع هذا الصوت الذي يظهر كأنه ينعي ألم الوحدة أو يبث شكوى الفراق، ولم أزل مهتدياً به إلى أصله وأنا أركض تارة وأتوقف أخرى إلى أن انتهى بي الجد إلى فسحة فسيحة واقعة في جوف تلك الغابة ومحاطة بسياج من أعظم الأشجار، وهناك رفعت نظري فرأيت السماء حينئذ متحدبة على تلك الفسحة المحاطة بذلك الشجر الهائل كتحدَّب قبة من زجاج على عمد وقناطر من زبرجد، وإذا أطلقت نظري قليلاً وجدت صخرة منفردة القيام مضجعة على ناحية يتدفق في أسفلها ماء غدير عظيم، تدفقاً بسابق الطير بسرعة، وهو يتشعب إلى جوار تذهب متشتة في أقطار ذلك الحوش تاركة عند انفصالها صباحاً وأنيناً موجعين.

وبينما كنت شخاصاً في هذا المشهد البهيج، ومتأملاً بما تصنعه الطبيعة من الفلتات الغريبة، وإذا بعاصف من الريح قد نهض من سكناته وهب هبوباً كاد

يقتلع جميع الغابة ويطير بها إلى أعلى الجبال الشامخة، فأغمضت نواظري إذ ذاك لدى تلك الزوبعة الطائرة خوفاً من لذع غبارها الثائر، ولما فتحت أجفاني رأيت عرشين منتصبين أمامي على الفور كأنهما مصاغان منن الذهب الإبريز وهما مرصعان بأفخر الأحجار الكريمة، ووضعهما كان قريباً من تلك الصخرة وذلك الغدير. وفي كل منهما لمحت شخصاً جالساً وعليه من اللياقة والكمال ما لم تسمع به أذن ولم يخطر على قلب بشر.

أما الشخص الأول فكان رجلاً لابساً برفيراً أرجوانياً يتلألآ كأنوار الضحى وفي يده اليمنى صولجان طويل وقابض باليسرى على رقعة مطوية بغير نظام، وهو معتقل سيفاً ذا حدين وعلى رأسه تاج مكتوب على إكليلة "يعيش ملك الحرية: وكانت عيناه تتناثران شرراً وهو مقطب الحاجبين وأجم الوجه بحيث يتضح للناظر كونه منفعلاً بنوبة عظيمة من الغضب لأمور تدخل في سياسته، وكان شاخصاً في نقطة من الأفق يتصاعد منها دخان وقتام.

أما الشخص الثاني فكان امرأة، وعلى ما لاح لي أنها زوجة الأول، وهذه المرأة قد كانت ذات وجه بيضوي الشكل يلوح عليه حسن بلغ أعلى درجة من سلم الجمال، فعينان تنبعث منهما أنوار الحوار على سواد الكحل، وأجفان كأنها سكري بخمرة الفتور أو مأخوذة بسحر الغزل، وحاجبان كأنهما صورتا بقلم رافائيل أو نقشتا بأزميل ميخائيل، قد جمعتا بين الاقتران والزجح وجمع جبينها بين السعة والبلج، وكان رأسها متوجاً بشعر مسترسل يترامى على أقدامها كطالب شفاعة بهيأة تكل عن إحاطة تشخيصها الصناعة، وسواده يتموج بسنا الصقال اللامع كالليل الذي يخامره ضياء الفجر الساطع، وهو مكلل بإكليل من الذهب والغار علامة الظفر والانتصار. وكانت وجنتاها صفحتي لجين، قد

اندفع إليهما نور الشفق، ومباسمها كشقيق أخذ يتفتح إذا ما الصبح انفلق، وكان جيدها قد صيغ من بلور لطيف، يعلو على صدر يحمل كرتي مرمر نظيف. أما معصماها فقد كان لدوائر الأساور مركزين يرسلان أقطاراً متساوية الاتصال، وكذلك أرساغ قدميها كانت تزدان بخلخاليها، أما لباسها فقد كان جامعاً لكل الحشمة، بحيث لم يكن سوى جلباب عريض حريري النسيج يحيط بجميع قوامها من العنق إلى الأقدام، مزرراً على صدرها ومستدقاً عند معطفها يحيطه كنطاق، ومن هناك يأخذ بالاتساع إلى الأسفل بدون أن يتبدى مشهد قبة عظيمة.

وبينما كنت أنظر إليها نظر المندهش الحيران مأخوذاً بخمرة ذلك الجمال البديع مضطرباً بوقوع تأثيراته على قلبي الذي كنت أضغطه بيدي خوفاً أن يطير شعاعاً، وإذ قد لاح لي سطر من أحرف نارية على إكليلها الذهبي يعلن هكذا "فلتحيا الحكمة".

وإذا شرعت أتأمل بعد تلاوة تلك الأحرف في أبهة هذه الملكة المتواضعة، رأيت جبينها زاهراً بأنوار النباهة والذكاء، وعيناها تتقدان بأشعة التعقل والفطنة، وصدغاها متسمان بالحزم والرشد، وهي تبتسم بالبشاشة والوقار ملتفتة إلى ذلك الملك الغضبان التفاتاً يرسم شكل القمر في الليلة الإحدى عشرة، ومنحنية أمامه بيد منبسطة تستميل خاطره وتستعطف قلبه بكلام يقع في السمع وقوع الدر في الصدف، فسمعتها **تقول له هكذا**:

- نعم لا يجب التغاضي عن هذا الملك الظالم الذي لا يبرح مجتهداً بزرع زوان الخشونة والتوحش في حقل مملكتنا ذات التمدن والتهذيب، ولا ينبغي الإضراب عن استئصال كل أعوانه وأنصاره الذين يلبسون ثياب الحملان وينفردون ما بين خراف رعايانا كلما غفلت عنهم أعين

التيقظ والانتباه واضعين على وجوهم براقع المكر والخديعة، حتى إذا ما تمكنوا من استمالتهم بقوة الاحتيال، يأخذون حينئذ في إفساد ضمائرهم السليمة، مظهرين لهم شرف التعبد لملكهم وما عنده من الفوائد والمنافع، إلى أن يطرحوهم أخيراً بأيدي ذئاب عبوديته، ولكن مع ذلك لا ينبغي معاملة ذلك الملك العنيد وأولئك الأعوان المردة إلا بما يقتضيه قانون شريعتنا العادلة. أي بالأناة والحلم واللطف لئلا يحسبنا الذين يجهلوننا ظلاماً أو حمقي.

- كيف يمكنني أن أعامل هؤلاء القوم بما تقتضيه نواميسنا حسبما تشورين مع أنني قد أفرغت جهداً طويلاً وتكلفت تعباً ليس بيسير حتى أوقعتهم أخيراً في قبضتي؟ أفما يخشى من هربهم بواسطة الحيل والخداع إلى حيث لا نعود نظفر بهم ثانية؟ فها أنا قد اعتمدت على شنق هذا الملك الخبيث وسجن جميع حفدته وعبيده مؤبداً، وعلى دثار جميع مملكة العبودية بكل سرعة، وما عاد لي حاجة لما كانت تدفعه هذه الدولة من الخراج، لأن جميعه آت من مال الظلم.
- إياك تصنع هكذا يا أيها الملك المعظم لئلا تفتح سبيل التمرد والعصيان أمام شعوب مملكتنا وتعود القوميات الأهلية إلى الثورة ثائرة. لأنه معلوم لديك كم وكم من الناس يميلون طبعاً إلى تلك الدولة ما عدا الذين قد مالوا إليها بقوة الفساد والغش، فإذا – لا سمح الله – أخذت الحروب الأهلية بالانتشاب، نعدم راحتنا ونقع في وجل عظيم، فتصير المصيبة الأخيرة أشر من الأولى، إذ نكون كالطبيب الذي يسرع إلى سفك الدم حالاً في الحميات الخبيثة بدون ملاحظة المزاج والبنية، فيهلك المريض بشدة انحطاط القوى الحيوية.

- فأشور عليك إذا يا أيها الملك الجليل وأرجوك ان تتنازل إلى قبول مشورتي، وأن تستحضر لديك ذلك الملك العنيد مع أهم أعوانه، وتضع لهم شرائع وقوانين جديدة يسلكون بموجبها، وتشدد ذلك الوضع بالصرامة اللازمة بعد توبيخهم وتبكيتهم، ثم تجعل لكل منهم ناظراً من طرفك، وكذلك يجب أن تكون كثر عساكرهم من جنس عساكرنا، كيلا يعود لهم مقدرة على مخالفة الناموس أو العصيان المتمرد، لكي يعلموا أنك أنت هو الملك الأكبر مقداراً والأشد عزيمة والوسع مملكة وأجناداً، وأنه بأي وقت تشاء يمكنك شن الغارة عليهم وأسرهم وسجنهم حسبما فعلت الآن.
- قد ظهر لي الآن من كلامك يا أيتها الملك السعيدة أنه يجب إرجاع هؤلاء الظلمة إلى مملكتهم بعد تلك الحروب التي أثرناها عليها وكل ذلك التعب، فأنا أعجب منك كيف مع كونك بهذا المقدار حكيمة تردين على بمثل هذا الرد ولا تشورين على باستئصالهم عن آخرهم لكي نأمن غوائلهم ومكائدهم؟

فقاطعته الملكة قائلة:

- إن شورى عليك يا أيها الملك الجليل بوضع شرائع جديدة لأولئك القوم أصحاب تلك المملكة المشئومة، وباستصحابهم بمناظرين عليهم من طرفنا، ويجعل أكثر عساكرهم من جنس عساكرنا، إنما هو عين استئصالهم وإبادتهم، لأن بذلك يعود يمكننا وضع اليد على مملكتهم وضمها إلى مملكتنا بكل سهولة وبدون أدنى انزعاج لداخليتنا ولكن مع طول الزمان والصبر، الأمر الذي به قد نجحت أكثر ممالك

العالم حسبما تخبرنا التواريخ، ولكن إذا أوقعت بهم الآن حد السيف بدون التبصر بعواقب العجلة، فأخشى عليك من الوقوع في بلبلة البال والندم على المحال.

وبينما كانت هذه الملكة الحكيمة تبسط آراءها لذلك الملك الجليل، وإذا برجلين مقبلين من جوف الغابة بأقدام مهرولة وبوجوه عليها سيماء الاشتغال، ولم يزالا يتقربان إلى أن وصلا أمام المظهر الملوكي وسجداً هنالك بكل احترام ووقار، وكانا متدرعين بأسلحة الحرب وأعينهما ملتهبة بضرام الموقع، وأحذيتهم متوحشة بما نسجه النقع، والدماء سائلة على حد ظباها ومضمخة ثيابهما العسكرية، وكان مكتوباً على خوذة أحدهما: "هذا قائد جيش التمدن، وعلى منكب الآخر، وهذا وزير محبة السلام".

وعندما وقعت من الملك التفاتة عليهما حياهما بالإكرام وقال لهم: أخبراني بما فعلتما شفاها، فأخذ الأول يسرد الحوادث هكذا:

- إن نصرتنا الكاملة على الأعداء لم تحتمل أكثر من موقعتين، أما الأولى فكان حدوثها على هذا الوجه: وهو أن هؤلاء عندما شاهدوا جيوش آدابنا المستظهرة مقبلة عليهم فرقاً فرقا أسرعوا حالاً إلى قتالنا منظمين أجناد مقاومتهم، وأخذوا يدافعون هجومنا عليهم بنيران مدافع العناد بدون أدنى اكتراث بنا، وكان حامل علمهم رجل يسمى بالبغض. فعندما لاحظنا قحتهم هذه زمرنا حالاً ببوق النار الدائمة ورفعنا لواء الهجوم، وعدت ترى حينئذ جيوشنا الغضنفرية الظافرة غائصة في سحب دخان الغيرة، متلألئة ببروق صحيح التعاليم على صهوات

جياد المدارس التي كانت تحمحم طلباً للهجوم وشوقاً للاقتحام، ولم تزل قنابر براهيننا تنقض على صفوف الأعداء كالصواعق من أفواه مدافع جيوشنا المظفرة التي كانت ترعد تحت سماء حرب الحرية، ولم تبرح بنادق ألفاظنا تمطر عليهم رصاص العزيمة إلى أن رأيت تلك الصفوف أخيراً متفرقة كبنات نعش، ومنهزمة أمام نظام فيلقنا الذي كان يحكي الثريا شعلا والجوزاء مسيراً، وهكذا لم نزل هاجمين عليهم وهم ناكصون على أعقابهم متقهقرين، حتى ظفرنا بالغلبة والانتصار وتركنا كثيرهم بين قتيل وجريح، والبقية أدبروا وحوصروا في معاقل الآراء السخيفة التي ألقوها وحسبوها حقائق غير قابلة التحويل.

أما الواقعة الثانية فقد كانت على هذه الكيفية: وهي أن أولئك العداء قد أرسلوا إلينا رسولاً حاملاً من طرف ملكهم رسالة بها يعدنا أنهم يتركون الأسلحة بشرط أن تتنحى عنهم قليلاً عساكرنا، فوعدهم سعادة رفيقي هذا (وأشار إلى وزير محبة السلام) أن يصالحهم، وكتب لهم بذلك رقعة ودفعها للرسول، فأخذها وذهب، وهكذا أتممنا الوعد، ومذ شاهدوا تنحينا عن معاقلهم طمعوا بمسالمتنا لهم وأخذوا يجمعون عساكر جديدة بعزم جديد، واندفعوا علينا ثانية كالوحوش الضاربة تحت إدارة سبعة قواد تسمى بالأرواح الشريرة، وكان حامل علمهم جندي يقال لها الخيانة، فعندما رأينا تأهبهم للقتال وهجومهم علينا اغتيالاً ومفاجأة تحت لواء الخيانة، هرعنا حالاً إلى أسلحتانا القاطعة وقابلناهم بأمواج كتائبنا المنتصرة وأخذنا نصادمهم مصادمة بني أسد لبني كلب،وكنت أنا وهذا الوزير نخترق صفوف جيوشهم شاهرين سيف الهمة والمسعى، ونضرب يميناً وشمالاً بكل عزائمنا لكي نشدد قلوب

الجنود المنقضة عليهم كالنسور، وكان دخاننا يبتلع دخانهم ورعود مدافعنا تخرس مدافعهم، ولم نزل نجزر مدهم ونفل حدهم حتى استظهرنا عليهم ملياً، وأوضحنا تقهقرهم جلياً، ولم نرجع عنهم حتى أوقعنا جميع عساكرهم وقوادهم في قبضتنا بعد حرب ضروس قامت على ساق وقدم، وأشهر من نار على علم، ولم نكتف بهذه الغلبة فقط بل دخلنا أيضاً إلى معاقلهم الحصينة لكي نستخرج ما فيها من القوات، وبينما كنا نتجسس ونبحث تلك الحصون واحداً فواحداً وجدنا في أحدها رجلاً هرماً قد نفضت أقدام الأيام على هامته غبار الشيب وهو مختبئ في إحدى زوايا إحدى الغرف، وكان ناكس الرأس مكفهر الوجه منحط العزائم والقوى ذارف الدموع منحنى الظهر حتى كأنه صنم لا يستطيع إتيان أدنى حراك فقبضنا عليه أيضاً وأخرجناه إلى الخارج، وربطناه مع سبعة قواده المذكورين ومن يحمل عليه بسلسلة حديدية ووضعناهم في سجدن عندنا تحت الأسر، وحالاً أخذت قلماً وقرطاساً وسطرت بين هاتين الموقعتين بحذافيرهما على وجه الاختصار، وأرسلت الأسطر إلى عظمتكم مع بريد مخصوص.

- **أجاب الملك:** قد وصلتني رقعتكم مع البريد المذكور ولكني لم أستوعب كل الحوادث حسب الواجب، ولذلك رددت إليكم لكي يدعوكم إلى هنا لأقف على جلية الأمر منكم مشافهة، فمن هذه الواقعة التي أبرزتموها لي لم أعلم سوى موقعة واحدة، وأنكم موعودون من الأعداء بالتسليم وترك الأسلحة، بينما كان نظري يسبق ويرى من بعيد دخان وغبار معركة مخيفة، وأذني كانت تسمع لغطاً يشبه دوى رعدات

من أفق بعيد، ولم ألبث أن أغرقتني لجة البلبال إذ أنني لم أعلم النصر لمن يكون.

- نعم إن هذه المعركة التي هي الثانية ربما كانت جارية بينما كنت تشرفون معروضنا بتلاوته، لأننا بعد برهة قليلة من نهاية الكفاح الأول، حيثما أسرعنا إلى أخبار عظمتكم، فزنا بالمعترك الأخير ونوال النصر والظفر من حيث لا تعلمون، ومع ذلك كنا نقتصر على إنجاز تلك الموقعة الأولى حسب المرغوب لو لم يدخل عش هؤلاء المردة على سلامة قلب وزير محبة السلام (وأشار إليه)، أما هذا الخير فقد كان مطرقاً ببصره إلى الأرض غير متحرك وكأنه واقع في هواجس كثيرة

فالتفت الملك إليه وقال:

- بالحقيقة أن سلامة قلبك قد صارت السبب الوحيد لنشوب تلك الموقعة الثانية، لأنه لو كنت تعرض عن تصديق دعوى أعدائنا بالتسليم عالماً أن الحرب خدعة، لكانت جيوشنا أنهت الموقعة الأولى حسبما اقتضت الثانية، وكنا اغتنينا عن ثقلة هذه الأخيرة ووفرنا رجالاً ومالاً.

- فأحنى الوزير رأسه لدى الملك وقال: إنه لم يخطر لي البتة إمكان هجوم هؤلاء البرابرة علينا مرة ثانية بعد ما شاهدوا ما شاهدوه من بسالة جنودنا الأقوياء في الحروب، وتيقنوا جيداً من عجزهم وضعفهم بالنسبة إلى ثباتنا وقوتنا. فقد جرت الأقدار بما لم يخطر في الأفكار، ومع ذلك فليس إجابتي لطلبهم كانت مسببة عن اقتناعي فقط بكونهم لا يجسرون على محاربتنا ثانية، بل وعلى طمعي بحقن الدم أيضاً، إذ قد

خطر لي أنه إذا لم نجب طلباتهم وواصلنا الحصار والهجوم، فقد يمكن أن يجري نهر من الدماء حسبما جرى ذلك في كثير من مواقع العالم من عهد يشوع أريحا إلى تيطس أورشليم ومن بعده...!!

فقاطعه الملك قائلاً: إنه يوجد في طريق الإنسان كثير من الموانع التي لا يمكن الحصول على رفعها إلا بسفك الدم، وكذلك قد يصيب الإنسان كثير من الحوادث التي لا يمكنه دفعها إلا ببذل الروح وعلى كل حال:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم.

ولكن يا أيها الملك المعظم ليس بجيد للإنسان أن يسرع حالاً إلى إهراق الدماء على نزر الأشياء، وليس جميع الحوادث والأحوال تساوي الدم الإنساني الذي لا يوجد أثمن منه، ولا يجب مصارعة أولئك الشعوب الذين يبادرون إلى شن الغارات والفتك ببعضهم البعض على مآرب لا يعتد بها أو خرافات لا بيت لها في رقعة التمدن، بحيث يؤول صنيعهم هذا ليس إلى دمار ودثار أخصامهم فقط، بل إلى انحطاط وخراب هيئتهم أيضاً. إذ أن الرجل الظالم يرجع ضرره على نفسه، وعلى هامته يهبط ظالمه.

فلا برهان إذن على سمو عقل الإنسان وترويض أخلاقه ودعه سجيته أعظم من محبته السلام ونفوره من الحروب والخصومات. على أنه بالسلام تنمو الهيئة الاجتماعية وتتوسع دائرة تقدمها بالثروة والمعارف والآداب. بالسلام تخصب الحقول وتعطي الأرض غلاتها وتجود الفلاحة ويكثر الحصاد. بالسلام تعمر البلاد والقرى وتتسع التجارة التي عليها يقوم مدار الاشتراك الاقتصادي مع كافة العالم. بالسلام تتقوى الممالك وتعظم رجالاً ومالاً،

وبالإجمال أنه بالسلام يقوم شرف البلاد وصالح العباد، ولكن إذا أخذنا نتصفح الحروب وغوائلها إنما نرى العكس تماماً. على أنه بالحرب تتبدد الهيئة الاجتماعية وتضيق دائرة تقدمها ونجاحها حيثما يرسل إليها مركز الجهل قاطرات الخراب. بالحرب تمحل الأرض وتضن بإنتاجها وتتقهقر الفلاحة ويقتر الحصاد، بالحرب تنهدم البلاد وتغور المتاجر في أودية الاضمحلال وتنقطع الشعوب عن مشاركة بعضهم البعض، بالحرب تضعف الممالك وتقل رجالاً ومالاً، وفي النتيجة أنه بالحرب تذل البلاد وتباد القبائل ويسود الخراب، ومع كل ذلك فقد يلد السلام حروباً والحروب سلاماً، بناء على أن زيادة الراحة قد تنشئ أضراراً ألا تذهب إلا بواسطة التعب والرياضة، وهكذا أيضاً زيادة التعب قد تسبب جملة أعراض رديئة لا يمكن أن تنجو منها الإنسانية إلا تحت سلطة الراحة والسكون أما ترى حينما تمردت علينا مملكة العبودية وأخذت تفسد في الأرض بواسطة أعوانها وتعيث بسذاجة شعوبنا فساداً كيف نهضنا ضدها مبادرة وأشهرنا أسلحة الحروب عليها حذراً لئلا يبتلعنا القعر وتطبق البئر علينا فاها. وهكذا أتممنا تشتيت شمل العدو وصحنا عليه بصافور الغلبة والظفر ضاربين بطبول الحرية التي نحن أولادها، وحينئذ فأنا وزير محبة السلام كما تدعونني قد اخترقت بذاتي جماهير معسكر هؤلاء الأعداء، واقتحمت قلاعهم منتضياً سيف الهمة والمسعى حتى أنزلت بهم النكال دفعاً لوقوع القلق والاضطراب في بلادنا،ورفعا لتسلط القبائل الأجنبية علينا، الأمر الذي يفعل الخراب أكثر مما تفعله الحروب، فهنا نرى أن السلام قد أنشأ حرباً.

وعندما نسترجع هذه الحروب راحتنا وهدؤنا الاعتيادي منادية: ليكن سيف السلطان طويلاً، نقول من ثم: إن صخرة الحرب قد أفاضت مياه السلام

الدائم الذي به سيتمتع كل آت بهاء هذه الصخرة التي فجرتها العناية بعصا موسى لعتق كل سارح في برية الحرية أو في غابة الحق (وأومأ إلى الصخرة التي يتدفق منها الماء وأحاط بالإيماء جميع الغابة) وبينما كان هذا الوزير يتكلم كانت الملكة الجالسة بوقار وحشمة متكئة على ساعد العرش السامي تظهر الارتياح بتوريد خدها الأزهر، وعلى مباسمها تقرأ الحلاوة أية الكوثر، وهي تهز رجلها هزاً لطيفاً إشارة لاستيعاب الخطاب. وكانت تنظر إلى وجع وزير محبة السلام بعينين تفيضان جمالاً وكمالاً على طلعة تنفث في العقول سحراً وتدير على القلوب خمراً، فهي ترمي فؤاد فينوس (آلهة العشق) بنبال الفتور، وتأخذ قلب باكوس (إله السكر) بنشوة الخمور؛ مع أنها تخلق في مينارفا (آلهة الحكمة) مهابة واحتراماً، وتجري في روح المريخ (إله الحرب) برداً وسلاماً.

فما أتم الوزير كلامه إلا ورأيت زنجيين مهرولين من بعد إلى ساحة هذا المسرح، ولم تزل بطون الأدغال تبتلعهما تارة وتلفظهما أخرى حتى أدركا أخيراً هذا الموقف وسجداً على الفور تجاه المشهد الملوكي مكشوفي الرأس مطرقي الأعين، قد عبثت بأنفاسهما غصص الرعشة والهلع، وغب سجودهما أبرز أحدهما من جيبه درجاً مطوياً ورفعه منشوراً لدى العظمة الملوكية وهو مطمئن الظهر منحل العزائم.

فألقت عليهما الملكة لمحة عين، ثم أمرت قائد الجيش بحركة الإيماء أن يتناول الدرج ويتلوه علناً، فالتفت القائد وأشار إلى حامل هذا الدرج بالدنو، فدنا وألقى بين يديه الكتاب ونكص، فتلاه ذاك بصوت عال وإذا مكتوب فيه ما نصه:

إلى العظمة الملوكية.

إن تقادير النحس والتعاسة قد حركتنا نحن معشر الأشقياء إلى رفع الأسلحة إزاء وجه عظمتكم الملوكية بحيث لم نكترث بيدكم القوية وساعدكم الرفيع، الأمر الذي جلب علينا من لدن ملوكانيتكم غضباً لا يخفي وسخطاً لا يطفي فلبسنا اللعنة كالثوب لأنه لم نعلم – لكثرة جهالتنا – أن كل سلطة هي من الله، ولذلك قد منعنا رب الحكمة كل حركة وأبقانا لديكم كعمود لوط، حاملين على عاتقنا رجسة الخراب ، مسودي الوجه، مضطرين بين يدي الغضب الآتي.

فإذا كان لم يزل يوجد في قلبكم نحونا ذرة رحمة اقبلوا من عبيدكم إعلان الندم على ما فات، وأطلقونا من سجن الحماقة وأسر الجهالة، ونحن نعدكم وعداً ثابتاً أننا نجري جميع أوامركم وقوانينكم في كافة ولا بنتا الصغيرة، ولا نضع أدنى خلل في نظام مملكتكم ذات الاتساع والعمار، عالمين أن سيف السلطان طويل، وأن الذي يعصي السلطان أو الشريعة تكون نهايته الدمار والدثار، وأنه لا يمكن قط لأي ملة كانت أو أمة وجدت قهر الصولجان الملوكي أو مجاوزة قوانين السياسة، وأنه واجب على كل إنسان أن يخضع خضوعاً مطلقاً لعظمة السلطان، عالماً أن الله قد جعله على الأرض أعظم قهرمان، وسلمه مقاليد الشريعة ذات الأمان.

فحينما أتم القارئ تلاوة الدرج طرحه على الأرض. مرتعداً بثوران الحمية وصرخ يا للمكيدة!! فتناوله وزير محبة السلام وتلاه بفم الضمير ثانية، بينما كانت الملكة مشرئبة والبهتة تعلو وجهها صارخة: يا للحيرة، وبعد صمت يسير يكفي لتكرار التلاوة السرية، رفع الوزير عينيه بحياء إلى حضرة الملكة واضعاً الدرة إلى جنبه برفق، وأخذ يستميل بلحظاته قلبها إلى إجابة أولئك المسجونين، ويحركها بظرافة تبسماته إلى الشفقة عليهم.

فانعطفت هذه السيدة إلى الجانب الملوكي ورمقته بعينين رطبهما الإشفاق، **وقالت له بتبسم بطفح بأنوار الحنو:**

- دعهم يحضرون إلى المحكمة عسى يفلحون.
- أخشى وقوع المكيدة.
- أنا أكفل ذلك والحكمة تعرف طريقها.
- ليكن لك حسب قولك.
- فالتف الملكة إلى الوزير وقالت له: قم فاذهب بذاتك واستحضر المسجونين إلى هنا كي نحاكمهم، فنهض المومي إليه للوقت وجاز مسرعاً.

ثم **قالت الملكة لقائد الجيش**: اكتب رقعة إلى الفيلسوف واستعجله بالحضور إلى هنا، ففعل فقالت له: أرسلها مع هذين العبدين، فدفع لهما الرقعة حالاً بعد أن أطلعهما على محلته في مدينة النور، فذهبا يزرعان الأرض، والقائد راح يتخطى في ناحية، وأخذ المظهر الملوكي يضرب في أغوار التفكرات، وما عدت أرى سوى هيبة السكوت العميق ولا أسمع سوى هدير الماء المتدفق.

- 2 -
الهـــواجـــس

وبينما كنت أجول في مسارح الأوهام العقلية وأهيم في أودية الخيالات الفكرية، وإذ لمحت شبحاً عن بعد وهو يخب في بطن الغاب، غائصاً في غمر الظلال المتكاثف. وما زال يعسف على قدم الإقدام حتى نفذ من تلك الغمرات المدلهمة، وظهر في مسرح الأحلام ظهور القمر من كبد الغمام.

وما برح يتردد قدوماً ويتحذر هجوما حتى رأيته خر لدى العرشين بأسلوب ما به شين، وإذا هو رجل أحرز سمة الوقار وعلى وجهه تلوح حذاقة الأفكار. فهو ذو جبهة تشير برحابتها إلى تمام العلم والعمل، ونظرات أشد نفوذاً من نبال بني ثعل، وكان لباسه جامعاً بين المهابة والاحتشام، جمع الحرف بين الصحة والإشمام، ذو قامة ولا تغرب عن العامة ورشاقة تتوقد بها النامة، أما سنه فلم يتجاوز آحاد الخمسين،على كل ما كان ما يلوح لي ويستبين.

فلما صادفته لحظات الجالسين على مقام السلطنة، بثته إشارة التحية مظهرة دلائل الابتهاج بقدومه، ثم أومأت إليه الملكة أن يجلس حذاءها، فتقرب وجلس مستريحاً على ركبتيه، فأوعزت إليه براحة الجلوس ففعل.

وبعد فترة من السكوت التفتت إليه هذه السيدة **وقالت له**:

- هل عرفت كيفية نهاية الحرب؟
- نعم قد بلغني أن النهاية كانت انتصاراً لكم والله يعطي النصر لمن يشاء.
- ولكن بعد موقعتين يحكيان العويرض بما تكلفتاه من تعب شاق.
- لا راحة إلا بعد تعب، ولا نعيم إلا بعد شقاء.

- وهل بلغك أن ملك العبودية وأعوانه قد أسروا واطرحوا في السجن تحت سطوتنا بعد أن أدرنا عليهم رحي المنايا وأمطرنا على هامهم البلايا.
- لا لم يبلغني أمر الأسر. (أجاب بدون كبير اكتراث).
- نعم هكذا تم الأمر. وقد أنفذوا إلينا عرض حال ينطوي على إقالة التمرد والعصيان والوعد بعدم الرجوع إلى زرع الخلل في نظام مملكتنا نادمين على ما اجترموه ضدنا وراجين منا أن نطلق سجنهم ونفك أسرهم.
- لا شك أنه يجب إجابة استرحامهم (أجاب الفليسوف رافعاً كتفيه) ولا ينبغي معاملتهم بالقسوة حذرا من ملامة العموم.
- فقاطعه الملك بعد إصغاء وتفكر **قائلاً**: إن الأمارات التي بها نهجوا سبل التوحش والعبودية في مملكة التمدن والحرية تستحق النهوض ضدهم بكل قسوة لأنهم أخذوا يسلبون حرية الناس ويزرعون بينهم الخصومات والخرافات. فلو لم تستدركني هذه السيدة بمشورة حكيمة لكنت أنفذت أمراً بشنق ملكهم وسجن أعوانه وأنصاره مؤبداً.
- هكذا تم الأمر (أجابت الملكة) أما المشورة التي تنازل عظمة الملك بقبولها، فهي أننا نستحضر أولئك الأئمة ونضع لهم قوانين وشرائع جديدة يسلكون بموجبها ونرفقهم بنظار من طرفنا ونمزج عساكرهم بعساكرنا وبذلك نأمن غوائلهم ونستولى على ولاياتهم بالتدريج بدون إثارة الحروب وشن الغارات فنخلص من فخاخ دولة العبودية.

فأطرق الفيلسوف ساعة ثم رفع عينيه إلى السماء وأخذ بتأمل قليلاً، ثم أدار رأسهم يميناً ويساراً وأحاط جميع الغابة بنظره وهو يهمهم بكلام مترادف غير مفهوم، ثم أعاد الإطراق ثانية وأسدل على عينيه براقع الجمود صائراً لبواشق الأفكار فريسة.

فشرعت الملكة تتأمل في هذه الظواهر مندهشة كأنها ترى مشهداً عجيباً.

وأخذ الملك يفاوض العدل والحلم وما كان إلا كلمح البصر حتى أنبرى الفيلسوف من هواجسه **وقال**:

- ولم أفهم معنى الخلاص من دولة العبودية وهل يمكن أن يوجد لأحد خلاص منها؟
- كيف لا يمكن ذلك؟ (أجابت الملكة) وهل يخفى عليك فعل المدافع والبنادق؟
- إنني لا أرى وسيلة يمكن بها الخلاص لأحد من نير العبودية، على أنني أرى جميع ما في الطبيعة مرتبط بسلسلة الاستعباد بعضها لبعض.
- وكيف ذلك؟ (أجاب الملك) وهلا يوجد حرية في العالم؟
- لا أيها الملك العظيم.
- أفلا توجد طريقة بها يحصل الإنسان على شبه الحرية لكي ينال لذة الحياة؟
- نعم يوجد.
- أوضح لنا ذلك.

فأطرق الفيلسوف برهة ثم أخذ يتكلم **فقال**:

- إننا إذا تتبعنا الإنسان منذ ولادته إلى نهاية حياته إنما نرى حيرته تجري خاضعة إلى ما لا ينتهي من العبوديات، وهكذا نرى أيضاً جميع

المخلوقات، فالطفل المولود عندما يسقط على الأرض يصرخ وينتحب علامة لإشعاره بوقوع سلطان المحيطات به عليه، ولم يزل عبداً طبيعياً لأمه طالما يتغذى من لبنها إلى أن تضع له المر على الثدي إثارة لطرده من حلاوة الحياة وإكراهه على الدخول في مضمار الحياة المستقلة، وحينئذ يميل بوجهه إلى مواجهة عالم الغلبات، فتدفعه شرائع الاستقلال الحيوي في عبودية الموجودات، وتعصف به زوابع الأقدار في مفازة الطبيعية، فيعود مدافعاً ومجاذياً جميع الكائنات أملاً بالخلاص من فواعلها وتأثيراتها الواقعة عليه، فيخضع للحرارة ليستعين بها على الفرار من سلطة البرد، ويميل إلى هذا الأخير ليدفع عنه غلبة سفير الأولى، ثم يبسط يديه لدى مكارم المملكة الأزلية علنا ليسترجع منها ما اقتنصته من بنيته بالانحلال والتنفس خفية،ويبتني من الجوامد بيوتاً لتحميه من حوادث الجو وهجير الشمس، ويستنجد بالمعادن لوقاية أبنيته من غوائلها الصواعق المنقضة، ويستخدم أجنحة البخار ليطير بها إلى كل فسحات الأرض. وهكذا لا تبرح طيور أفكاره تحوم على دوحة الطبيعة، وأقدم آماله تعدو في كل ميادين العالم، حتى تنتصر أخيراً على جميع قواته كل تلك الأكوان وتزجه تنتصر أخيراً على جميع قواته كل ذلك الأكوان وتزجه في أودية العدم حيثما تحيط به ظلمات الأزل وتكتنفه غمرات السكون بعد حياة قد نقضت بالتعبد لكافة الحادثات وجرت تحت رق المصائب والأتعاب والأمراض، خاضعة لقوى مقتدر أو ضعيف مستتر حسبما تقتضي الغاية أو الضرورة، فلا

حرية إذن للإنسان، وهكذا تجري عين هذا المجرى سائر الموجودات. أما ترى كيف الحيوان القوى يستعبد الضعيف؟ أما ترى كيف أن كل الحيوانات تسترق لخدمتها جميع جماهير الوجود النباتي؟ أما ترى كيف القوات الجاذبة تجمع بين المتفرقات العنصرية وتخضعها لسلطان الاجتماع والتراكم تحت عبودية الفواعل الكيماوية وأسر قوات التماسك بحيث لو أمكن للعناصر الهيولية أن تأخذ حرية الانفراد لما أمكن قيام النظام الطبيعي أصلاً؟ أما ترى كيف السيارة تدخل في سلطة الثوابت؟ قم بنا لنظير على أجنحة التصورات، ونرفع ببخار الأفكار إلى سماء الحقيقة، وهناك أريك كيف أن هذه الكرة الأرضية تظهر لنا عن بعد سابحة في أعماق الفضاء وهي تدور منحنية على نفسها كشيخ أحنت ظهره أثقال السنين، وكيف أن هذا الجرم العظيم منقاد بسلاسل سرية إلى الخضوع لنظام الفلك الشمسي بحيث لا يمكن له الخروج عن حدود دائرته المضبوطة بأقطار من تشعشع جاذبية ذلك المركز الثابت. وكيف أن جميع الأجسام المنتشرة على سطحه خاضعة لحكم تقلب الفصول والأوقات حسبما يقتضي حلوله في إحدى جهات تلك الدائرة المنطقية. وكيف أن كل تلك الاجسام نراها ثائرة على بعضها البعض لتدفع عبودية التغلبات حيثما تنشئ معامع مهولة، فهناك تسمع ضوضاء حروب الجو تضبح ضد غلبة المؤثرات، وترعد في آذان الأرض التي تراها تقذف السماء بلهيب غضبها وعجيج عالم المتحركات بصدع رؤوس الجبال العالية، إذ تشاهد كلا من أنواعه يشن الغارة الشعراء على ضده حتى يهلك

الجنس ويباد، فترى أسلحة تتلامع في الشمس وتقعقع في الهواء، وجيوشاً تتضارب على صهوات الخيول تاركة سحب غبارها تغشى وجه السماء، وأيادي تتجالد وتتقارع، ومخالب تخلب وتجرح وأظافر تنشب وتهشم، وحوافر ترفس وتصدع، وأجنحة تخفق وتلطم، وذنأبات وأفواهاً تلذع وتلسع، وكذلك ترى مملكة الحياة النباتية مشتغلة بدفاع غارات الطقوس بوسائط وطرق لا ينجلي غموضها ولا يحصى عددها، وهي تضبح وتئن ليلاً ونهاراً مما تفعله عليها لطمات الأرياح الهائجة التي تخطف ورقها وتنثر ثمرها، ونرى أيضاً عالم السوائل يقاسي تبديد التبخير تحت إحكام، فيهب إلى العلا وينضم هناك إلى بعضه متنوعاً. ثم يهبط غائراً في بطون الجوامد حيثما يشرع بمصادمتها فتقذفه إلى حيث يذهب أنا مضطرباً خوفاً مما قد قاسى، فكيف لا يمكن والحالة هذه أن يقال لا حرية في الخليفة ولا خلاص من العبودية؟ ومع ذلك فقد يمكن للإنسان أن يحصل على شبه الحرية ويتمتع بلذة الحياة على نوع ما، أما حصوله على الحرية فلا يمكن إلا إذا أدرك كون اعتبار سني وجوده – مهما كانت عديدة بالنسبة إلى ما سبقه من العدم وما سيرد عليه – كاعتبار برق طفيف لمع في ليل دامس، وأن جميع مصايب الدنيا وأكدرها تحيط بهذه الفترة الحقيرة من الحياة التي يجب أن تستثنى منها أوقات نومه وطفولته وشيخوخته، الأوقات التي تعتبر عدماً، وأن جميع المحيطات به تجتهد بهدم بنيته لتسترد منه ما سرقه من موادها بالاغتصاب، ولا تغفر السرقة إلا بالرد الذي هو

حكم المغتصب، فإذا عرف هذا جميعه يعود متحرراً من سلطان الوقائع ومعتوقاً من عبودية الزمان، فلا يلبث معرضاً للأكدار والأحزان لعدم مبالاته بها، ولا يوجد هائماً بالمسرات والملذات لكونه لا يعتبرها بحيث يرى الجميع بخاراً يتصاعد قليلاً ثم يضمحل، ومن لم يبال بالألم لم يشعر بمضضه، ومن لا يعبأ باللذة لا يدرج بهجتها.

إذا كان وقع السيف ليس يمضني ... فعندي سواء غمده وغراره

وإن كان جمر الخطب ليس يصيبني ... فلا خوف لي مهما يهب شراره

أنا لا أرى في الأرض شيئاً يروقني ... لذلك نور العمر عندي ناره

أيطربني هذا الزمان وكله ... عراك على الدنيا يثور غباره

أما حصول الإنسان على لذة الحياة فلا يقوم إلا إذا طرح ثقل العالم عن ظهره وارتضى بما قسم له من الله لقيام وجوده، خالعاً كل أمارة تجعله عبداً وأسيراً لمن يعلوه أو يتواطاه، وذلك كالحسد والطمع والكبرياء والحقد وهلم جرا، موجهاً أقدامه على هذه الأرض حسبما يهديه الصواب والاختبار، منعزلاً عن الناس ما أمكن، واضعاً لأفكاره ناموساً يحفظها في قيود الاستقامة والرشد، لاجما لسانه عن كثرة الكلام لئلا يحسب تكلمه هذياناً، راكضاً وراء الحكمة والعلم، معرضاً عما يؤول إلى خراب بصره وبصيرته كالتهافت على اللذات الجسدية والتمرغ بأوحال التفاهة والفساد، ناظراً في كل لحظة إلى الموت الذي يتهدده على ممر الثواني، عالماً أن كل نفخة من نفسه مأخوذة من روحه، عارفاً أن القوة الضابطة لأقدامه على سطح الأرض ستكون يوماً لابتلاعه إلى عمقها.

فبهذا جميعه قد يحصل الإنسان على لذة قصوى في مسير حياته، إذ يشاهد ذاته محلولاً من جميع وثاقات الأكدار والآلام الأدبية والطبيعة ، منقطعاً عن كل عالم العبوديات اللازمة والمتعدية.

وإذا تحركت به الأميال إلى مخالطة أشباهه في النوعية، فعليه باختيار من حسن وطاب، واجتناب من قبح وخبث على أنه بذاك تفسد الفطرة السليمة التي هي أصلية في الإنسان، وبهذا تصلح وتجود وتسمو إلى أوج الكمال.

وإذا اتفق وجوده في مركز بعيد عن دائرة المخالطة الحسنة فعليه بالانفراد إلى ذاته ومخالطة العوالم المحيطة حيثما ينال لذات لا مزيد عليها ويغتني بها عما سواها.

فإن الإنسان المثقف لا يدرك لذة أعظم اعتبار من تلك الملذات التي يدركها عندما ينشر شراع التعقل لسفينة أفكاره ويطلقها في بحور الموجودات لدى مهب أرياح الحوادث.

هناك نرى غزالة العالم تبرز يومئذ من كناس المشارق الذهبية ناشرة أنوار بهجتها على وجه السماء، حيثما تعود كافة الخليقة مستبشرة بلقاءها وتخطراتها، فالجبال تنطق بمناطق لجينية وترفع قممها الغاطسة في غمرات الظلام فاتحة باعاتها لاعتناق طفحات الضوء، والمياه تتموج بلمعان الأشعة المنبعثة من لدن أبي الأنوار كأنها متسربلة بدروع نارية، والأشجار تمرجح رؤوسها لدى بشائر النسيم كذي طرب متوجة بأكليلها العسجدية نافحة بأطيابها التي تذهب مباشرة سائر الخلائق بثوران حركة الحياة، والأطيار تغرد وتصيح مهللة مكبرة على أدواحها العديدة ومحطاتها المتفرقة وسائر الحيوانات تأخذ بالحركة والانتعاش.

هناك نشاهد هذه الغزالة مائلة على خط الزوال بوجه بقدح شراراً، حتى إذا ما بلغت الطفل وأوشكت على الفراق، صبغت بدموعها الدموية وجنات المغرب وغارت في كهف الأفق سادلة على المسكونة ستار الظلام، تاركة العالم في حالة سكوت الموت، منهضة الخمود العميق في جميع البنية الأزلية، سالبة من جميع المواد المظلمة ما أفاضته عليها من الصور الجلية، حيثما تتبلل الأرض مع السماء وتضيع الجبال في الأودية ولا يعود يقال سوى: ما هذا السكوت العظيم.

هناك تحوم عقولنا على كل حادثة طبيعية وظاهرة أدبية، فترتقب طيور السماء متبصرة باجتماعاتها وانفراداتها واختلاف أصواتها وحركاتها، وتتبع مسير وحوش الغاب متأملة بفرائسها المرتعدة وحروبها المتقدة، وتهب مع الرياح الأربعة إلى حيث لا يعرف إلى أين ذهابها ولا من إيابها، وتقف حائرة عند نهوض الزوابع وانتشاب الأنواء وتراكض البروق وانقضاض الصواعق وهدير الرعود، حيثما لا يدرك الباحث من الأسباب سوى ما يظن به، ولا يعلم من الحقائق سوى ما يراه مادياً في بحور الاندهاش والذهول، ملتطما بأمواج الهذيان والبحران، مأخوذاً بخمرة الهواجس والأوهام إلى أن يصبح كريشة تتجاذبها رياح الأحكام المضطربة، ويأخذ بتصوير الغيوم إلى أشكال وصور تتجدد على ممر الدقائق والأوقات خالعة كل هيئة حقيقية.

هناك نهجس بهذه المواد الكونية من أسمى جرم إلى أدنى ذرة باحثين عن أصولها وفروعها وعلاقاتها ونسبة بعضها إلى بعض وغاياتها وأحكامها، ناظرين في كل جنس من أجناسها حركة حيوية متوزعة على سائر أنواعها تحت ناموس المناسبة، فالبعض يجمد متصلباً، والبعض يسيل مائعاً، والبعض ينتشر طائراً، وهذا ينمو بلا حياة ولا حركة، وذاك يفتخر بأسلوب نموه وحياته وحركته المطلقة والإرادية.

هناك نتصفح هذه الأشياء وتلك الحوادث فنقول: إن كلا منها له حياة خصوصية تقوم بتدبير وظائفه وحركاته الذاتية، وحياة عمومية تشركه مع بقية الأشياء وتربطه بعللها ثم لا ترضي ، فنقول: إن الكهرباء هي السبب الوحيد لجمع وتحريك كل العناصر بما أنها روح العالم، ثم لا نرضي، فنقول: إن سيال الحرارة هو عنصر جميع الحركات والمتحركات وعليه مدار سببية الحياة والنعيم، ثم لا نرضى، فنقول: إن النور ذاته هو القائم بإحياء وتحريك كل مادة مؤلفة أو منفردة، نرضى، فنقول: إن شريعة التثاقل التي تثبت أقدار الأكوان في مراكزها وأوضاعها وترشد جميع خطواتها إلى سواء السبيل هي ذاتها سبب القيام العام ومبدأ الحركة، ثم لا نرضى، فنقول: إن الفضاء غير متناهي هو ينبوع البداية والنهاية ومنه أخذت كل الأصول العالمية وإليه سترجع. ثم لا نرضى، فنقول: أنه يوجد رب منزه عن إدراك الإفهام مهتم دائماً بتدبير عموم تلك المخلوقات ومنه الحياة وكل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كون، وهو محرك الحركات وأصل الكائنات وإليه مصير الأشياء جميعها لا إله إلا هو ولا معبود سواه، فحالا نرضى بهذا المقال ونسحب جميع أفكارنا من مواقع الأوهام والوساوس الغريبة معانقين عروسة الحقائق وبكر كل برية متمتعين بلذة الحياة وحرية المعيشة.

وبينما كان الفيلسوف مواصلاً خطابه كان الملك والملكة شاخصين إليه بأعين يخامرها الذكاء والإصغاء مستوعبين معانيه بكل أتضاع ودعة. وغب نهاية مقالته جعلت الملكة **تقول له**:

- إننا عرفنا عدم إمكان وجود حرية ليس للإنسان فقط بل ولسائر الأنواع أيضاً، وأن جميع الأشياء بما أنها مرتبطة بخدمة بعضها البعض

فهي مقيدة أيضاً بعبودية بعضها للبعض، ولكن عندما تكون هذه العبودية غريبة عن الفائدة أو مضرة بمصلحة العموم، فالاجتهاد بإبطالها ضرب من اللزوم وقانون صوابي، وبناء على ذلك عندما نظرنا دولة الاستعباد تتداخل بين شعوبنا بطرق مختلفة حيثما لا ينجم عن هذا التداخل سوى الأضرار بهم وفساد طبائعهم السليمة، نهضنا حالاً ضدها وسطونا عليه سطوة إسكندر على داريوس وسجناهما كما علمت.

أما حصول الشخص على لذة الحياة معتوقة من كل حكم وصافية من كل مكدر فهو أمر لا يمكنه أصلاً، ولو تطبع على تتبع تلك النواميس التي ذكرتها والتي يصعب تنفيذها بمقدار سهولتها على التصور حسب كل الأعمال الفلسفية، لأن ما يناط بالتطبع ولا يقوم بالطبع، وما يوجد هكذا غير لذيذ لمجرد الطبيعة وغريباً عن السهولة، وإذا استطاع الإنسان السلوك كما أشرت فلا يكون ذلك إلا لمن وسمته العناية بسمة الانفراد. وهذا شاذ وليس حكم الشواذ إلا الحفظ وعدم القياس عليهم. وعلى كل حال إن الإنسان إذا كان متعبداً لأحكام دولة التمدن والصلاح يكون داخلاً في حقيقة الحرية التي تطلبها الواجبات الإنسانية أدبياً. على أنه إذا كان التعبد لازماً فتلك الحرية ملزومة لأن اعتناق الإنسان واجباته لا يدعي عبودية،ولكن إذا كان الشخص معتوقاً من رق تلك الدولة فهو بالضرورة داخل في عبودية ما ضدها تبعاً لمقتضى الحال.

وبما أن الدخول في أحكام دول الخشونة والبربرية يفسد أحوال البشر وينثر نظام جمعهم نازعاً عنهم كل الصفات الحميدة والسلوك السليم، الأمر الذي لا يوجد أضر وأشر منه لمملكة التمدن والصلاح، وجب علينا من ثم دفعا لوقوع

البلبال والوبال بين رعايانا أن ننهض ضد تلك الدولة الآبقة التي إذا لم ندثر آثارها لم تقم حرية الإنسان المطلوبة أصلاً، تلك الحرية التي لا يمكن إنكارها أدبياً مهما رددت الهواجس والأوهام الفلسفية التي لا وجود لها إلا في العقل الذي قد يخطر فيه ما لا حقيقة له في الظاهر.

- فأردف الفيلسوف كلامه **قائلاً**: أنا لم أمنع إمكان الحرية أدبياً بل طبيعيا، ولا شك إذا أطلقنا أنظارنا إلى عالم الآداب وتبصرنا بشرائع الحكمة إنما نرى بكل وضوح قوماً أحراراً وآخرين عبيداً حسبما تقتضي أحوالهم وكيفيتهم، وعلى كل حال أن الاجتهاد في عتق العبيد وهدم مباني العبودية هو أمر ضروري وواجب، فطرح الملك أنظاره على الفيلسوف وقال:
- إذن فمشروعنا محاربة مملكة العبودية وإنقاذ شعوبنا من قيودها لا يستحق الملام.
- كلا، بل هو مستحسن وواجب يا أيها الملك المعظم لأن الاستعباد مكروه عقلاً وطبعاً، وقد نهض العالم بأسره ضد هذه العادة المستهجنة وما يحكيها، فحاربوا من ظلم واعتدى، وأعدوا له السلاسل والأغلال.

- 3 -
مملكـــة الـــروح

وإذا كان التمدن والحكمة يتناقشان في الفلسفة رأيت جمهوراً آتياً من شاسع الأرض وما زال يتقدم متقرباً تحت كراديس الأغصان حتى بزغ من أفق الغاب وانتصب أمام المشهد المهاب، وبينما كان يتراءى لي أن الشمس مالت إلى الطفل وعاد الغروب يطوي ذلك الشراع الذهبي الذي نشرته أيدي الأصيل على الشجر، لم أعد أرى حينئذ سوى أشباح ضئيلة تتحرك في الفسحة، وما عاد يمكن تمييزها لاندفاع تيار الظلام عليها، بحيث جمع الغابة أوشكت أن تنمحي تحت أقدام الظلام وتغور في غمر الظلمات المتراكمة.

وما كان إلا قدرة قصيرة حتى رأيت ناراً لمعت عن بعد فجأة، وصارت تتقرب تاركة خلفها مصابيح مضيئة. ولم تزل تتكاثر هذه النبارس ممتده إلينا من وراء العرشين حتى ملأت ميدان النظر. ولما خرقت الأضواء جلباب الظلام، عدت أرى رجالاً كثيرين عليهم أبهة العسكر بارزين من كمين وهم يعملون على إيقاد ما لا يحصى من تلك القناديل التي كانت معلقة على الأغصان. وما برحوا يتممون مسعاهم حتى ملأ الغابة جميعها أنواراً، فأخذت الغابة تتموج بالأضواء الساطعة وصارت شعلة واحدة حتى أظهرت مشهداً عجيباً لم أشهد أبهج ولا أسنى منه، فصار يظهر لي كأن الأرض أخذت تقذف السماء ليلاً بما طرحت عليها من شهب الرمضاء نهاراً، أو كأن جميع عرائس الغابة جعلت ترشق علينا بروق نظراتها. وعدت حينئذ أخال نفسي كأنني قائم في وسط فلك يتشعشع بالنجوم والكواكب التي لا عدد لها. وما زلت أتبع بأنظاري هؤلاء الرجال الذين زرعتهم الهمم في أربعة أقطار الغابة لكي يذيعوا

آثارهم ويبثوا أنوارهم اللامعة حتى رأيتهم يرجعون منضمين أجواقاً أجواقا ويعسكرون وراء المحفل الملوكي مثنى وثلاث ورباع حينما كان يحثهم الصوت العالي قائلاً: أتمو الصفوف فإني أراكم خلف ظهري.

وحينما أمعنت النظر في هذه الصفوف الملوكية رأيت على صدر كل منهم لوحاً مكتوباً فيه: "هذا جندي المدن فليعش منصوراً، وما لبثت أن أخذت بمجامع حواسي جلالة هذا المشهد اللامع بالانوار، الساطع بالبهجة والأزهار، حيثما كان الملك نازلاً في عرشه نزول الشمس في الحمل مغموراً في أشعة الهيبة والوقار، والملكة بازغة من سماء مجدها بزوغ الزهرة من أفق الصباح،مكتسية بحلل الكمال وحلي الجمال. والفيلسوف جالساً على قبالتها جلوس الدعامة على أساسها، موثوق الأعين بسلاسل الأفكار والهواجس. وقائد جيش التمدن متخطراً في محله تخطر الأسد في عرينه وأجواق الجنود مصطفه حول المسرح كالزرازير على الأشجار. بينما كان الليل ناشراً شراع الهدوء على جميع حركات الطبيعة وضاغطاً بكل ثقلة على الهواء كيلا يخترقه صوت آخر سوى تكتكة المصابيح أو تغريد البلابل:

ولما أخذ الصوت قراره طفق الملك يناجي الفيلسوف **قائلاً**:

- إنه يوجد مملكة كبيرة جداً وقوية إلى الغابه يقال لها مملكة الروح، وهي ليست بعيدة عن تخومنا فهل تعرفها؟
- نعم توجد مملكة كهذه أنا أعرفها حق المعرفة، فما سبب سؤال العظمة عنها؟
- لأنني أريد شن الغارة عليها أيضاً.

- وما الداعي إلى ذلك؟
- هو سماعي عنها أنها تتصرف كثيراً بما يضاد سياستنا، وأن ملكها الجالس على العرش القديم طالما يجتهد بخراب شرائعنا واضمحلال كل مملكة لا تخضع لنواميسه.
- فهز الفيلسوف رأسه وأجاب **قائلاً**: لا تصغ إلى كل محدث أيها الملك المعظم لأن أكثر خراب العالم ينشأ عن أحاديث ذوي الغرض. وطالما يتكلم الناس بلغة غير مفهومة ولا معقولة، وحقيقة الأمر هي خلاف ما بلغ أذنيك لأن العالم لم يدخل في دائرة التهذيب ولم تقم مملكتكم هذه إلا منذ قيام تلك المملكة القديمة. وإذا كان البعض من رعاياكم ينسبون إليها بعض أراجيف، فهذا ناجم عن المصلحة الخصوصية التي من شأنها أن تهدم بناء المصالح العامة.
- فرشق الملك محدثه بنظره وقال: إن كثيرين من ذوي الصدق والثقة قد أخبروني عن جملة أمور خشنة تواظب عليها مملكة الروح، فهي على ما يقولون أنها أولاً: لا تفتر عن بث التصورات الباطلة في عقول الناس لكي تنهض بذلك تصديقات سخيفة تؤنس عليها أقيسة دعواها بالسياسة المطلقة. وعلى هذا الأساس قد شيدت قوس نصرها في ساحة العالم ونشرت عليه راية سلطانها. ثانياً: لم يكفها التسلط المطلق على الأنفس والأجساد حتى جعلت تمد سلاسل سطوتها إلى أعماق القلوب لكي تجتذب السرائر والضمائر إلى ميدان أحكامها وعبوديتها. ثالثاً: لا يكل أعوانها وأنصارها عن الجولان في كافة المسكونة لأجل زرع الشقاق والفتن حتى إن أكثر الحروب التي جرت في الدنيا كانت

مسببة عن أفعالهم على ما قيل. فهل يصوغ لنا الصمت عن هذه المملكة إذا كان هذا شأنها؟

وبعد برهة من السكوت وثب الفيلسوف على قدميه وأحنى رأسه أمام الملك. **وقال:**

- اسمح لي أيها الملك أن أجاوب عظمتك بالتفصيل عما شرفت به أذني.
- قل ما تشاء.
- أولاً: إن هذه المملكة ما علمت قط ولن تعلم إلا ما يقود الناس إلى نوال السعادة الحقيقية كما يظهر لنا ذلك بتدقيق الاستقصاء والفحص بدون التفات إلى ما يهذر به أهل الغرض الأعمى. وجميع تعاليمها مأخوذة من الكتاب المعصوم الذي لا ينكره إلا أهل الضلال المبين. ولو لم يرتفع قوس نصرها في ساحة العالم، وتخفق رايتها على كافة الأقطار، لكان النوع البشري وقع في هاوية الفساد وعم الخراب جميعه، ولا سيما في هذه الأجيال الأخيرة حيثما انتبهت الطباع الخبيثة من غفلات السذاجة لدى ارتفاع نهار التمدن الذي ما عاد يوجد عنده لجم لرد جماح تلك الطباع سوى ما تعلمه مملكة الروح. فإذا رغبت عظمتكم في خرابها تكون هذه الرغبة واقعة على نفس مملكتكم أيضاً، فلا تنقسموا على ذواتكم. ثانياً: إنها إذا كانت تمد سلاسل سطوتها إلى أعماق القلوب فلا يكون ذلك إلا لإيقاع التهديد والخوف على السرائر والضمائر الشريرة لا للاستيلاء عليها، فلو لم تكشف هذه المملكة حجاب غفلات البشر عن المستقبل، وتظهر لها ما يكمن فيه من

المخاوف المستعدة لابتلاعهم، فمن كان يمكنه ردع الغني عن الفقير؟ من كان يستطيع رد جماح القوي عن الضعيف؟ ومن كان يحسن تقييد رجل السارق ويد القاتل؟ ومن كان يقدر على قمع ثوران الزاني؟ ومن كان يمكنه قطع لسان شاهد الزور؟ وبالإجمال فمن كان يمسك العالم البشري عن تمزيق بعضه البعض ويحفظ نظامه من الانتشار؟ ثالثاً: إن الإنسان لانطباعه على السوء ينسب جميع المعاصي والقبائح لمن ينهي عنها ويوبخ مرتكبيها، وبناء على ذلك قد توهم البعض من الأشرار كون جولان خدام مملكة الروح في أقطار المسكونة هو لأجل غرس الخصومات والقلاقل بين الناس على أن الأمر بالعكس، أي أنهم يهتمون دائماً بنشر الاتفاق والسكينة في العالم ولو اضطرتهم الحال أحياناً إلى أن لا يلقوا على الأرض سلاماً بل حرباً.

فإذن ليس يجب فقط أن يغض الطرف عن هذه المملكة، بل ينبغي أيضاَ أن تكون مملكتهم موجهة كل قوتها إلى مساعدة نموها وانتشارها. على أنه إذا كانت دولتكم قائمة بالأبدان فتلك ثابتة بالأرواح. ومن المستحيل قيام البدن بدون الروح ومن الجهالة تغافل ذاك عن هذه.

وإذا خامر أفكاركم الميل إلى محاربتها فلا يخطر لكم إمكان الانتصار عليها، بل يجب أن تعلموا أنكم سترجعون القهقري ناكصين على أعقاب الندم لأن يد القدرة ممتدة دائماً إلى مساعدتها وإغاثتها حتى لا يمكن لنفس أبواب سقر أن تقوى عليها. وطالما اجتهدت الملوك قبلكم في إسقاطها وإفنائها ولم ينجح لهم اجتهاد، وبمقدار ما كانت الاضطهادات ثائرة عليها كانت هي تزداد قوة وامتداداً إلى أن استغرقت في حضنها العالم وأخضعت كل ملوك الأرض تحت موطأي قدميها. وما ذلك إلا لكون العناية العلوية قد سلمتها زمام الأرواح

والعقول ورافقتها في كل المسالك، وهكذا فهي ستظل تنمو وتكثر وتشحن الأرض إلى أن تتم المشيئة.

فبعد أن استوفى الملك كلام الفيلسوف ووجده في غاية الصواب أيقن ببطلان فكره وخطأ اعتماده، وعلم أن ما كان يبلغه البعض من أهالي مملكته ضد مملكة الروح هو ناشئ عن روح التغرض والتعرض. وهكذا عزم على تقديم الإعانة والإغاثة إلى مملكة الروح بدل المضاربة والمحاربة. وبعد فترة من الصمت التفت إلى ملكة الحكمة **وقال**:

- إن جميع كلام الرجل صواب وليس فيه أدنى ارتياب وكل ما كنا نسمعه كان باطلاً لا حقيقة له، وإذا افترضنا محال صحته وأشهرنا الحرب على مملكه الروح فلا ترجع إلا خائبين وربما نقع في خطر اضمحلال كل مملكتنا وسياستنا لأن ما تساعده الروح لا يغلبه الجسد.
- فأجابت الملكة باتضاع: لا شك فيما تكلم به الفيلسوف، ولا ريب من الاعتماد السابق كلا باطلاً، لأن السياسة العلوية منتصرة دائما على السلفية، وما يكون هابطاً من الأعالي يسطو مطلقاً على ما ينهض من الأسافل، وما تفعله الصدف لا يغلب مفاعيل القصد.
- لعل سياستنا ودولتنا وجدتا على سبيل الصدفة والاتفاق.
- إذا تتبعنا شجرة امتداد السياسة والتملك في العالم من حيث الأصل، إنما نراها باسقة من جرثومة المصادفات والتقادير. قال هذا والتفت إلى الفيلسوف وقال له ماذا تقول أنت؟
- فأطرق الفيلسوف قليلاً ثم أجاب. لا شك بما قالته حضرة الحكمة.
- فصل لنا ذلك.

- إن تفاصيل هذا الأمر يعسر جداً ولا يوجد نور واضح يستهدي به إلى حيث الحقيقة. فقط يمكنني أن أورد على ذلك ما أتناوله من الاستقراء والاستنتاج التاريخي.
- لا بأس خذ راحة الجلوس وقل ما يخطر لك.

فامتثل الفيلسوف للأمر وجلس وبعد إطراق قليل رفع رأسه وجعل يقول

- 4 -
السياســـة والمملكـــة

- كما أن نظام هذه الكرة الأرضية لا يمكن قيامه بمجرد حركتها اليومية على نفسها فقط بل يحتاج إلى الحركة الشمسية حول فلكها أيضاً، فهكذا الإنسان بما أنه محمول على ظهر تلك الكرة وأخذ جميع مواده ومقوماته من حضنها، فهو تابع في جميع أطواره لأحوالها. فلا يمكنه القيام بمجرد اقتصاره على ذاته فقط وذلك لعدم مقدرته على حفظ نظام حياته الشخصية، بل يعتاز إلى الدوران حول مركز مجموعة أيضاً. وكما أن القوة الجاذبة التي تتبادلها جميع الأجرام السماوية لا تسمح بوقوع خلل في نظام الفلك العامر، هكذا يحتاج ذلك المجموع الإنساني إلى قوة تحفظه من الوقوع في الخلل والتبديد. وإذا أخذنا نفتش عن مثل هذه القوة فلا نراها إلا في السياسة والشريعة. على أنه بذلك يوجد الإنسان محافظاً على التئام شمل جمعيته.

أما ينبوع ظهور السياسة والسيادة والشرائع فهو جار من تغلب الناس على بعضهم البعض منذ القديم، الأمر الذي أنتج التملك والممتلكات على وجه الأرض.

فلا سبيل لمن يرغب في الإطلاق على حقائق الحوادث البشرية وطرائق حدوثها إلا في إطلاق طيور التبصرات الدقيقة حتى تحوم باسطة أجنحة البحث والاستقصاء على شواجن التاريخ العام، حيثما يشتبك شجر المواقع في منحدرات الأجيال الغابرة وتهوي غدران الوقائع من شواهق القدمية العالية.

فلا ريب أنه إذا تطلبنا معرفة أصل انتماء وانقياد العالم البشري إلى بعضه البعض وكيفية انتشار السيادة والشريعة فيه لدعا الأمر إلى التوغل في أودية

التواريخ الفسيحة. وهناك تبرز لدينا عروسة غابة الحق من خباء الأزمنة السالفة مقدمة لنا بين أناملها زهرة المراد. وهكذا نعلم حينئذ أن الإنسان لم يسد في أول أمره إلا على عائلته وتوابعها فقط، ثم آلت به حركات الظروف إلى أن يسود ويسطو على قبيلة، ثم أفضت به تلك السيادة والسطو إلى التسلط على شعوب مختلفة وقبائل متنوعة حيثما نودي به "يعيش الملك".

فهلم بنا لنهبط بأقدام الاستقراء في أعماق القدمية الغامضة حيثما قد ابتدأت تلك الحركات في الصعود إلى قمة التمام الأقصى، حتى إذا ما بلغنا سدرة التتبع مخترقين فلوات الأدهار المتراكمة نجد أنفسنا منتصبين على عرفات البداية، إذ نشاهد الإنسان القديم يهرع إلينا شاهراً حسام السيادة وهو **يقول:**

- إنه لما كان النوع البشري تائها في البراري وثقوب الأرض، لا يجد له مقراً في بطون الأودية التي كانت تهدده بانقضاض قمم الجبال الشامخة عليه، ولا راحة له في فسحات القفر الذي كان يقذفه بثوران العواصف القاصفة ويلدعه بلهيب الهجير المستعر بين أثافي الجنادل والآكام. ولا مفر أمامه من زوابع الجو التي كانت ترشقه بمعجزاتها إذ ترسل بروقها لدى أعينه فتخطفها دهشة، وتطلق صواعقها في آذانه فيرتعد جزعاً، وتسكب أنواءها على هامته فيخر ساجداً لديها طالباً رحمة من إله يستحق العبادة. كانت الأرض وقتئذ غير محروثة ولا مزروعة وعديمة كل ثمرة، ومع ذلك فقد كانت تزهو ببساطها السندسي الذي بسطته عليها يد الطبيعة تحت مضارب السحاب منسوجاً من كل شجر ونبات وسيم.

فبينما كان أحد أفراد هذا النوع العظيم مضجعاً على ثيب مرتفع في فلاة قفرة الأديم تحت سماء وضيئة الأثير رائقة النسيم محفوفاً بنسائه وبنيه، وإذا بنسمة

هبت عليه عند انتصاب عمود الصباح، منطوية على نفحات زهور متنوعة الأطياب حاملة صرخات المواشي التي كانت تسبح رب الفلق، فأرشدت لحظاته الزائغة إلى أفق شاسع يترعرع بجلباب خضل الاخضرار ويترقرق تحت مساحب ذيول الغمام ومساقط أنداء الفجر. فعندما بدا لديه ذلك المشهد الزاهر وثب على قدميه للحال وصاح بلفيف عائلته المقرون وهو باسط يد الإيماء قائلاً: أما تنظرون إلى ذلك الأفق البعيد الذي يظهر لنا من خلال البزوغ كم هو بهيج المنظر وحسن المظهر؟ قوموا بنا لنذهب إليه ونتجسسه عله يكون صالحاً لإقامتنا فنخلص من هذه الأرض الممحلة وتعب تلك الحياة التائهة ونتمتع برغيد العيش. فما أتم كلامه إلا ورأى أقدام جميع تبعته تهرول أمامه إلى المحل الذي أشار إليه.

ولم يزل هذا المهاجر يطوي أديم الثري حادياً رحل رفاقه أخذا هدير الحيوانات دليلاً إلى حيث المناخ، حتى انتهى به المسير أخيراً إلى بقعة رحبة الأرجاء فوقف للحين واستوقف وأطلق نظرات التأمل ليرى جليا ما كان يلحظه عن بعد خفياً، وإذا هو منتصب في غوط قد كسته العناية بوشاح الجمال العجيب، وكللته الطبيعة بأنواء الفصل الرطيب، فهناك كانت الشمس تسبل أشعة ضحاها على طلعة ذلك الجنان الأزهر فيزدهى بألوان أجنحة الطاووس، هناك كانت الأنداء على ثغور الزهر العطر فتمثل تراقص الحبب في أفواه الكؤوس، هناك كان الجو الصافي يتعطر بأنفاس السحر فتهب نسماته ناشرة على الدنيا أطياب الرياحين، هناك كانت عرائس الربيع ينثرن من رؤوسهن لآلي النور على حدائق الرياض ويرسلن نظراتهن الصاحية إلى آفاق الأرجاء

الغراء، هناك كانت رؤوس أشجار الخمائل تحرق بنيران أنوار المشرق وأقدامها الثابتة تغرق في مسيل الماء المتدفق، وكانت أغصانها تترنح تحت عقود الزهور لدى خطرات الرياح، وصفحات أوراقها تتلألأ بطفحات النور تلألؤ الأسنة والصفاح هناك كانت الأطيان تصدح باختلاف الألحان، هناك كانت المواشي تسرح متنوعة الأبدان فلما شاهد هذا الإنسان سمو تلك البقعة الزاهرة، وكيف أن الطبيعة قد توجتها بكل أكاليل الجمال، وسكبت عليها مياه البهجة والازدهار، التفت إلى جمهور ذريته وقال: هو ذا مدير العالم ومديره قد أرشدنا إلى مقر الراحة في مكان خضرة حيث لا بكاء ولا تنهد، فهلموا لنمكث ههنا تحت هذه الأفياء الممتدة بين الزهور والينابيع، ونستريح مما قاسيناه من النصب والوصب في تلك البرية الجدباء، فأحنى كل منهم رأسه امتثالاً وصاروا جميعا تحت إيعاز إشاراته إلى حيث المحط، فكان حلولهم تحت ظلال دوحة لا تفلحها بها لفحة الرمضاء ولا تخترقها أشعة البيضاء ولما استروح الكل بريح الارتياح، وطفحت على شفاهم تبسمات الأفراح، جعلوا يتبادلون أحاديث البارحة ويتذكرون كل غادية ورائحة أما ربهم فقد كان شاخصاً في الأفق حيثما كانت تتراقص بنات الصباح ذوات الأكاليل الذهبية أمام ملكة المشرق الراكبة على عجلة نارية، ومندهشاً بما كانت الأنوار ترسمه على وجه الطبيعة ذات الحلل السندسية، وكأن لسان حاله **يقول**:

هو ذا الصباح بساطع الأنوار ... لا لا وفتح مغمض الأبصار

والشمس قد سطعت ورأيتها على ... قمع الجبال أمام جيش نهار

وعلى عمود الصبح قد شاد الضحى ... برج النهار مسلحاً بالنار

والشرق أوتر قوس نور وأنثنى ... يرمي على الدنيا سهام شرار
وغدا يزج على الرياض أشعـة ... كالنار تحرق أرؤس الأشجار
والفجر مد على السما بحر السنـا ... فهوت دراري الأفق في التيار
والليل مزق ثوبه حزناً علـى ... فقد النجوم وغار في الأغوار
ما زال مـد النور يدفع في العـلا ... جزر الظلام كعاصف لغبار
حتى امتلأ جوف الفضاء من الضيا ... وزهت بذلك كافـة الأقطار
والنهر أصبح بالسنا متموجـا ... فجرى يرد الضوء للأنظـار
فترنم القمري فوق غصونـه طرباً ... وفاحت نسمة الأسحار

وإذا أفاق من غفلات هواجسه نظر إلى أولاده ونسائه، فرآهم جالسين حوله كغروس الزيتون وهم يتعاطون كؤوس الحديث، فأخذ يخاطبهم قائلاً: ها أن معارض الصدف قد دفعتنا إلى هذا المكان الفاخر، فنلبث به ولا نحد عنه، وعلى ما أرى لا يعوزنا شيء ها هنا مما تحتاجه حياتنا، فها الأشجار تطرح علينا أفياءها وتنثر ثمارها، والينابيع تدفق لنا مياهها، والمواشي تسمح لنا بألبانها ولحومها، وإذا أرعد البرد فرائصنا وغرقتنا الأنواء نصنع من صوف هذه الحيوانات ثياباً تدفئنا ومضارب تقينا، فاشربوا هنيئاً وكلوا مريئاً في جنات تجري من تحتها النهار حيث لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون.

فلئن كان التاريخ يعجز عن تمزيق حجاب القدمية القصوى ليكشف لنا تفصيل ما أحدثه الزمان مع ذلك العائلة هناك، إلا أنه مع ذلك قد ينهج لنا طريقاً نسير به على قدم الاستقراء إلى حيث تقول:

- إن هذه العائلة قد اغتنمت لذة العيش في ذلك المكان الخصب فمكثت به آمنة وصارت تعيش بنتائج الأرض وحواصل الحيوانات المنفردة هناك وتسلك تحت إرشاد الكبير منها خلفاً بعد سلف، ولم تزل مع تقدم الزمان تنمو وتتسع بانضمام آخرين إليها، حتى صارت جمهوراً غفيراً يجري تحت سياسية ذلك الكبير الذي كان يخترع شرائع وقوانين يلتزم باعتناقها كل فرد من هذا الجمهور لدفع وقوع الخلل في نظام الجمعية، وبناء على ذلك سموه أميراً، ولكون المواشي والأنعام قد كثرت أيضاً وتعاظمت هناك لتواصل الداخلة وانقطاع الخارجة كما تطلب طبيعة حيوان الكلأ إذ يوجد الأمان. لم تعد من ثم تلك البقعة كافية لإشباع الجميع بدون توجيه الاعتناء بها، فصارت القطعان تتشتت، ولذلك بادر الناس إلى فلاحة الأرض وتهذيبها بعد أن تعلموا العملية الإنباتية من نفس الطبيعة، لأنهم كانوا يراقبون كيفية هذه العملية من السنابل أو القيصلات التي كانت تطرح الحبوب أو البزور في التراب بعد النضج، فتندفن هناك ثم تنهض نامية على شكل الأصل.

ولتسهيل إجراء التقليد للطبيعة في الفلاحة شرعوا يستخلصون المعادن الصلبة من مدافنها ويعالجونها بالنار الموقودة من حطب الغاب، فيسكبونها آلات ويستخدمونها في حرث الأرض وتحريك الأثقال آخذين الثيران أعواناً لهم.

وعلى هذا النمط أخذوا يتمتعون هم ومواشيهم بغلات الأرض وأثمارها مضاعفة، وصاروا يدفعون الأعشار لأميرهم أجرة لما كان يعانيه لأجلهم،

لأنه كان يحمي برجاله مزارعهم وحقولهم، ويمنع تعدى هذا على أمتعة ذلك مدافعاً عن تخوم أرضهم هجوم المغتصب، ساهراً على جميع أحوالهم السياسية بدون أدنى خلل في ترتيب الجمهور، حاكماً بينهم بالعدل، قاضياً بالإنصاف، ناشراً على الجميع راية شريعة واحدة، غير ملتفت إلى الامتيازات الأدبية ما لم يكن لأربابها نفع للمصلحة العامة، مجتهداً بكل أمانة في راحة شعبه ورفاهيتهم، عارفاً أن من يأخذ أجرته يطالب بالعمل وإذا لم يعمل يسقط من عين ذاته بحيث من لا يؤثر أن يعمل فلا يأكل، عالماً أن السياسة أو الرئاسة إذا وقعت في غير محلها تطلب من الشعب إنقاذها، غير مأخوذ بخمرة حب الرئاسة التي إذا ما خامرت العقل منعت بإبخرتها الكثيفة نفوذ أشعة الصواب إليه، متيقظاً لكل واجباته، صاحياً في كل أعماله، ذا سلوك حسن مع الجميع، محباً للغرباء، قادراً على السياسة، لا سكيراً ولا ضراباً ولا طماعاً، وبعد مضى قدرة من الزمان صاراً أولئك القوم ينحتون من الجبال حجارة، ويشوون من التراب قرميدا، ويوقدون من خشب الشجر ناراً.

ولما رأى أولئك القوم أن هيئتهم الاجتماعية قد انطوت على كل شروط الأمن والسلام وصارت حديقة حياتهم تزهو بأثمار الدعة والسكون تحت سياسة أميرهم واعتنائه، أعلنوا جميعه وجوب الطاعة والانقياد له وقد ملئت قلوبهم من محبته. وصاروا يسمون أنفسهم عبيده ويحامون عن حقوقه وحقوق بيته بكل مقدرتهم. وهو كل يضاعف اهتمامه في جميع مصالحهم العامة أو الخاصة غير مفتكر إلا في دوام راحتهم، ولا ملتفت إلا إلى وقايتهم من كل المزعجات مسميا إياهم شعبه وأولاده.

ولما كان لا يمكن لنظر الرائي أن يدرك جلباً كيفية امتداد السياسة على العالم، ولا أن يستوضح حقيقة المسلك الذي نهجته لها الأقدار، لما يعترضه هناك من ظلمات الأحقاب والأعصار، وجب عليه حينئذ أن يستخدم العقل كمصباح لكي يمكنه لأعينه بواسطة أشعة الانتقالات الفكرية أن تنفذ في تلك الظلمات الدامسة، فتفوز بمشاهدة ما وراء ذلك.

فهلم إذن أيها الرائي واتل علينا بقية ما جرى هنالك وأخبرنا عما عثرت عليه من المواقع بعد أن استطلعت العقل نبرا في أوج الغوامض.

- إنني بعد أن أولجت نظري طويلاً في بحر زاخر من الظلام الهائل حيثما كانت أمواج التيه والمعاثر تتلاطم تحت مهب عواصف الأيام والليالي، أنفذته أخيراً من هذه اللجج العميقة إلى سهل فسيح الأمد يعانق بباع نهايته أفق البداية، وإذا مسرح عظيم قد انفتح أمامي. وإذا كنت عاجزاً عن استجلاء اللاعبة فيه تماماً لشدة توغلهم في عباب القديمة وضعت على عيني نظارة الاستقراء وجعلت أتأمل، فرأيت جموعاً عديدة من الناس قائمين بمهمات عظيمة ومقيمين ضوضاء حافلة وهم يصيحون في بعضهم البعض قائلين: هلموا نبتني لأميرنا برجاً يبلغ رأسه إلى السماء. فكان البعض يقطع من الجبال حجارة، والبعض يصنع طيناً، وآخرون يشوون لبنا، وغيرهم يسرد تراباً، وما برحوا بإقامة البنيان حتى انتصب برج عظيم وصارت تحقق عليه رأيه أمير القبيلة.

وهكذا شرع كل إنسان يبني له بيتاً ولمواشيه مزوداً حتى قامت مدينة عظيمة المشاد يضج في شوارعها أفواج وافرة من العباد، ولما صارت الأسواق تطن بمطارق معامل المعادن، والشوارع ترن بأصوات الصنائع والأشغال

اليدوية والساحات ترتجف تحت أقدام المحافل والجحافل، والمسارح تتموج لدى لطم أمواج الأصوات الاحتفالية الآتية من أفواه آلات الطرب، صار يدوي في آذان الشعوب المتفرقة صوت ذلك الضجيج المرتفع واللغط الهادر، فكانوا يتقاطرون أجوافاً أجوافا، ويخيمون في ظلال المدينة طالبين من سكانها أن يقبلوهم في الجوار لكي يتخلصوا من مشاق البادية ويفوزوا براحة الحضر.

وهكذا كانت تلك المدينة تقبلهم بكل إكرام على شرط أن يخضعوا لأحكامها وشرائعها ويؤدوا الأعشار لأميرها، فلم تلبث أن تعاظمت جداً وتضاعفت مساحة وسكاناً، وصارت محاطة بأسوار رفيعة وحصون منيعة، حتى أضحت مركز رهبة يدور عليه احترام القبائل، وموضوع عظمة يحمل عليه حسد البشر.

وبينما كانت هذه المدينة الزاهرة رافلة بأذيال اليمن والكرامة، مختالة بسربال الهدوء والسلامة، تطفح في حاناتها كاسات السرور، وتشدو في حدائقها بلابل الحبور، وإذا عجاج يثور من بعيد، ونقع غبار بتصاعد إلى الجو، حتى عاد يظن أن زوبعة شديدة قد نهضت من جوف الثرى، وهمتا أن تكحل أعين السماء بأثمد تراب الأرض، وكانت أصوات كهدير هجمات المياه تهب من تلك الجهة، فصليل تمازجه قعقعة اللجم، وصهيل تتخلله نقرات حوافر الخيل، وما كان إلا كتردد الفكر بين شك ويقين حتى أسفر ذلك الغبار عن جيش جرار يتموج على الصهوات ويفري بطون الفلوات.

فلما نظرت عيناً الأمير ذلك العجاج الثائر، وسمعت أذناه تلك الأصوات الضاجة، لم يعد عنده ريب أن عدوا سمع بجلال مدينته، فدفعه لهيب الحسد إلى إشهار الحرب وإيقاع الحصار.

ولما ثبت عنده ذلك الغضب المقبل أخذته ثورة الحمية ودارت في رأسه حرارة الوطن ونادى في جميع المدينة معلناً صوت الحرب، حيثما أصبح الأهلون فريسة ترتعد بين مخالب الجزع والهلع لما عاينوا مما لم يعاينوا، فأوعز إليهم أن يجتمعوا في إحدى الساحات الفسيحة رؤساء ومرؤوسين، رجالاً ونساء، كباراً وصغاراً، أغنياء وفقراء، بدون أدنى امتياز أو تفريق لكون الجميع لهم أن يحاموا عن حقوق الوطن ويقتسموا مطاليب محبته سوية، لوجوب حقه على كل من لا ينكر عليه حق التمتع بخيراته. وعندما تم الاجتماع وشملت النخوة كل الجموع وقف ذلك الأمير على مرتفع عال وأنشأ يقول:

هو ذا الغرباء قد أحدقوا بنا فدونكم والطراد. وها الأعداء قد هاجونا فعليكم بالجلاد، أنتم الأسود وهم الكلاب. فواعجبا لكلب يقتحم الغاب. هلموا إلى النزال هيا إلى القتال، انزلوا بهم الحسام المسنون وانظروا أي منقلب ينقلبون.

ولما فرغ الأمير من مقاله، برز رجل عليه سيماء الذكاء والحماسة ورفع صوته بلسان فصيح وسط الجمع وجعل ينشد:

نشـــيد الحـــرب

هبوامن الغفلات يا أهل الوطن إن العدو دنا وها نار الفتن

حتى متى يا أسد صبركم ألا هبوا فقد حام الذئاب على الدمن

هجم العدو وها الغبار وأندم من ذا الغبار ستنسجون له كفن

لا تحجل الغربان في سعة الفلا يوماً إذا نهض العقاب من الوكن

ناداكم الوطن الذي قد ضمكم في حضنه وسقاكم لبن المنن

كروا إلى الأعداء كر الأسد يا أسد الوفاء فهم ثعالبة خون
واصغوا لصوت أب لكم يرجو الحمى منكم وهبوا اطردوا عنه المحن
أو ما ترون الدمع منه لأجلكم يهمي فقوموا نشفوا دمع الوطن
لا يحس الموت الزؤام لدى أمرء لكن فدى الأوطان موتكم حسن
فتقلدوا عدد السلاح وبددوا جيش العدى وخذوا أمامكم الزمن

فما فرغ من إنشاد نشيد الحرب حتى صارت أعين القوم تنثر شرر نيران الحمية التي كانت تتوقد في القلوب، فأخذ جميع الرجال يتراكضون إلى الأسلحة أفواجاً ويندفعون من أبواب الأسوار كاندفاع الصواعق من بطون السحب وهم يصرخون لا مقبرة إلا وراء السور. وكان الأمير ساعياً أمامهم كأحد الجنود. أما النساء فكن يحافظن على الأولاد ويجهزن أدوات الحرب. وهكذا أخذت الموقعة تنتشب بين الجيوش فكانت أصوات المقاليع ترن بين الأودية، والحجارة تترامى بين الصفوف، وعمد الحديد تتساقط على الرؤوس، ولم تزل الحرب دائرة حتى صارت الصدور تتلاطم والأيدي تتقاوم وكان الغبار يتصاعد من الأرض كتصاعد الدخان من فم الأتون، وما برحت هذه الملحمة مشتبكة حتى أخذ جيش العدو يتقهقر إلى الخلف ناكصاً على الأعقاب، وصارت جيوش المدينة تنادي خلفه بالغالبة والظفر، ولم تلبث أن شتتت شمل الأعداء ونثرت نظام صفوفهم وأسرت أكثر أجنادهم.

فوقعت خشبة الأمير في قلوب سائر الأخصام، وعمت هيبته على كافة الأصقاع، وازدادت محبته في نفوس شعبه الخاص، وصار الجميع يقدمون له الخراج ويقولون ليعش الملك ولندم الملكة.

وهكذا لم تزل هذه المملكة تنمو وتتسع ويمتد سلطانها إلى الأصقاع السحيقة حتى صارت أخيراً واسعة السياسة قائمة الشرائع والروابط بحيث لا عاد يستطيع أحد أن يعيش إلا تحت ذلك النظام.

فيظهر لنا مما تقدم أنه على هذا النمط قد كان ظهور السيادة والسياسة في العالم القديم، وعلى ذلك المنوال كان قيام الممالك، فمن يعلم أن مملكة أشور أو فينيقية لم يكن ظهورها وامتدادها على النسق المذكور، ومن يعلم أن مكدونية التي ابتلعت هاتين الأمتين لم تكن بدايتها هكذا، وأمر واضح هو أن رومية التي خفق نسرها على المسكونة قد كانت في الأصل أكواخاً.

ولما فرغ الفيلسوف من مقالته هذه نظر إليه الملك نظرة المندهش وقال له:

- ولئن كان خطابك هذا مبنياً على نتائج الوساوس والظنون مفعماً من أحلام المخيلة وأوهام الفكر، إلا أنه مع ذلك لا يخلو من رائحة الصواب وسمة الحقيقة، فلا بأس فيه.

وهكذا رمقته ملكة الحكمة بمقلة المرتضى واستصوبت خطابه.

وبعد وقوع السكوت في مسرح المطارحة برهة زهيدة وخلو المجلس من الحديث، أخذ الملك يناجي الملكه بصوت سري لم أعلم من موضوعه سوى الاهتمام بما جرى البحث فيه.

وإذا رأى الفيلسوف أن بواعث المناقشة صارت تحول دون مناجاة الملكين نهض مخليا لهما المكان وسار قاصداً جهة قائد جيش التمدن الذي كان يتخطر على مسافة غير بعيدة، ولما دنا منه وتلاطمت النظرات تبادلا مصافحة الأكف وسلما على بعضهما البعض، ثم جلسا معا على جزع شجرة عظيمة قد أضجعها الزمان.

ولما مكن الفيلسوف نظره من القائد وجد عينيه متقدتين بلهيب الغضب، ووجهه مرقعاً بسحابة الغيظ، وأثوابه مضمخة الدماء، فأخذ يطيب خاطره بعبارات لطيفة ويبشره باقتطاف ثمرة مشروعه قائلاً:

- ما لي أرى دخان الهيجاء يتصاعد إلى الآن من منخريك يا أيها القائد الشجاع، ولماذا يتناثر شرر السخط من عينيك؟ ولم لم تلق عن وجهك لثام الكمد، وأنت الظافر بالعدو والقاهر صفوف المردة والمنادي في مسرح الكفاح هو ذا أنا الغالب؟ ألعل الغضب لا يرحل بعد حلول الانتقام؟ وهل الانتقام لا يروي لدى الفيضان نهر الانتصار؟ وكيف لا يبتسم الانتصار عندما يظفر صاحبه بإكليل الغار؟ رحب صدرك فقد أنزلت بالأعداء نكبات الضيق. شد حقويك بالقوة فقد ضعفت عزائم الأخصام، أنقذ أطوار وجهك من أسر الغيظ فقد سقطت دولة العبودية، كيف يزأر الأسد والفريسة بين يديه؟ كيف يعتكر البحر والرياح قد سكنت أمامه؟ كيف يكمد الصباح والليل يتمزق إزاء وجهه؟ نعم قد بذرت الحروب ولكن حصدت السلامة. نعم قد غرست القتال ولكن جنيت الظفر، نعم قد أمت العبودية ولكن أحييت الحرية، نعم قد قيدت البربرية ولكن أطلقت التمدن، فاحكم بما شئت واقض ما أنت قاض.

فأجابه القائد مبتسماً وكأنه دخل في خلق جديد :

- إن دوام لوائح الغضب والكآبة على وجهي إلى الآن ليس مسبباً عن تلك الحروب والمواقع التي ملكنا بها الغلبة والنصر، والتي تستر عن ظهور لوائح الفرح والابتهاج بل عن سبب مهم جداً

- وما هذا السبب؟ (سأل الفيلسوف)
- هو اعتماد الحضرة الملوكية على إرجاع العصاة إلى أوطانهم ومملكتهم.
- نعم قد بلغني ذلك ولكن على شروط كثيرة منها إرفاقهم بجماعة من طرف دولتكم كرقباء على كل أحوالهم وأحكامهم، ومنها إلزامهم إتباع شرائع التمدن وقوانينه.
- إن أولئك القوم هم محتالون منافقون وليس لهم ذمم ولا عهود تربطهم، يقولون ما لا يفعلون، وفي كل واد يهيمون، أما تعلم أنه لا يوجد لأهل الخشونة والبربرية ميثاق سوى الكذب، ولا شريعة غير الاحتيال والمكر، ولا حكم عدا التعدي والظلم، ولا حاكم خلاف الرشوة، ومن أصعب الأمور إخضاعهم بدون تبديد شملهم وإهلاكهم عن آخرهم.
- نعم كل ذلك هو أكيد ولا ريب فيه، ولكن متى شاعت بينهم شرائع التمدن وطفقوا يتعلمونها من نعومة أظفارهم، وقام عليهم رقباء يسهرون عليهم من طرفكم، لا يظلون على تلك الخصال التي ذكرتها ويصيرون بعد قليل من الزمان طبق المراد.
- ربما يتم ذلك ولكن بعد ألف عام.
- ولماذا كل هذه المدة؟
- لأنهم شعب منقسم على نفسه من كل قبيلة وملة تحت السماء، فكل حزب منهم يبغض الآخر ويجتهد بخرابه ودثاره، بناء على أن المحبة لا تقوم في اختلاف الأجناس، ومتى بطلت المحبة زال التمدن لأنه الأساس الأول له، ومتى زال التمدن تمزقت أحشاء الوطن وخفقت

عليه أعلام العبودية، فلا يمكن رفع كل هذه الصعوبات ما لم يمر زمان طويل جداً.

- إنه وإن كانت كل هذه المبادئ صحيحة فربما لا يمتنع نهوض التمدن في وسطها لأن قوة انتشاره تغلب كل تلك الصعوبات، كما جرى ذلك في أمم كثيرة مختلفة الأصل والفصل.
- أظن أنه دون قوة المعجزات لا يقوم انتشار التمدن ما بين هذه القبائل، وإذا كان جرى ذلك ما بين أقوام مختلفين أصلاً وفصلاً، فهم قد كانوا منفقين ميلاً ورأياً.
- لا حاجة هنا إلى المعجزات والآيات.
- إذن بأي قوة ينتشر التمدن؟
- بقوة دعائمه المرتكزة على قلب الإنسان طبعاً قبل انحرافه إلى الفساد.
- كم دعامة توجد للتمدن؟
- خمس دعائم.
- هل يمكنك ذكرها لأنني أفتكر أنه يوجد أكثر من ذلك؟
- نعم توجد دعائم أخرى للتمدن ومنها تدخل طي الخمس التي أشرت إليها.
- فاشرح إذن ذلك:

- 5 -

التمـــــدن

قال الفيلسوف: إن التمدن في اللغة هو التخلق بأخلاق أهل المدن والانتقال من حالة الخشونة والبربرية والجهل إلى حالة الظرف والأنس والمعرفة، وفي اصطلاح علماء الاجتماع ناموس يرشد الإنسان إلى تجويد أحواله الطبيعية والأدبية، وهذا الناموس يبني على خمس دعائم وهي: أولاً: تهذيب السياسة، ثانياً تثقيف العقل، ثالثاً: تحسين العادات والأخلاق، رابعاً: إصلاح المدينة، خامساً: المحبة.

الدعامة الأولى

تهذيب السياسة

أنه لما كان مدار نظام العالم الإنساني لا يمكن صونه من كل خلل إلا بحسن سياسته، بات من الضروري الاهتمام والالتفات إلى تهذيب هذه السياسة وتحسينها لكونها محوراً يدور عليه عالم كبير يستحق كل الالتفات إلى نظامه.

ولا يوجد لهذا التهذيب أساس آخر سوى توطيد الحق وتمهيد أسباب الراحة للهيأة الاجتماعية لأنهما المركزان الأولان اللذان يتوقف عليهما مدار السياسة العامة، ومتى طرأ على الأسس خلل ما، لحق ذلك بكل ما بنى عليه.

ولا يمكن بقاء ذلك الأساس وطيداً إلا تحت جملة الأحوال وهي: **حالة الشخص الذي يتعاطى السياسة**، فهو يجب أن يكون رجلاً من أصل كريم وموسر، لأنه متى كان هكذا يكون بطبيعته ذا تربية حسنة وصالحة فيكون ذا صفات حميدة وأخلاق رضية حسبما يستلزم حسن التربية ويقتضي صلاح

الأحكام، ثم يجب أن يكون مروضاً بالعلوم الرياضية والأدبية ومثقفاً بمعرفة الشرائع والقوانين، لأنه إذا كان يجهل هذه الأمور لا يكون قادراً على تتميم خدمته، ويعود حينئذ مضطراً إلى الاسترشاد بالأجانب أو تحكيمهم، وهو ربما يصلونه أو يخونونه لأغراض ذاتية لهم، فتصير كل أحكامه فاسدة ويقع في مهاري اشمئزاز الجمهور، ثم ينبغي أن يكون فطنا نبيها لأنه إذا كان خاملاً لا تجد دقائق السياسة محلاً في عقله، فيضيع الحق وتضطرب الأحكام، فيصبح المحقوق غالباً والمحق مغلوباً. ثم يقتضي أن يكون عادلاً لأن العدل يثبت الحكم ويوطده ويجعل الحاكم محبوباً من جميع الناس ممدوحاً من الأخبار، مهاباً ومخافاً من الأشرار الذين لا لجام لجماح شرهم سوى هيبة الحاكم، وخلاف ذلك الظلم لكونه يهدم بناء السياسة ويعارض اتجاهات الحق ويلقي المقت والكراهية في قلوب الشعب وينهج سبيلاً رحباً لهجوم العصاة وتمزيق الهيئة، ثم يجب أن يكون قنوعاً لأن الطمع نتيجة التولع بالمال، ، وحيثما وجد الولع بالأموال فهناك يوجد التعرض والارتشاء. الصفتان اللتان متى باشرنا قلب الحاكم أزاغتاه عن الحق وسدلتا بينه وبين المصلحة العامة حجاباً كثيفاً. ثم يجب أن يكون ذا أناة لأن الأناة هي الآلة الوحيدة لاستقصاه الحقائق من صدور المتداعين حتى تصح الأحكام، أما العجلة فعليها يسافر الصواب، ثم ينبغي ألا يكون سكيراً، على أنه لا يوجد أعظم طارد للرشد والنباهة من مداناة الدن ومخامرة الخمر، فمتى ذهب رشد الحاكم فسدت الحكومة وبطل الحق، ومن الواجب أن يكون شجاعاً لأن الشجاعة درع للرؤساء ودرع للمرؤوسين، ولا عار أعظم من جبانة الرئيس، لأنها تبقيه عاجزاً عن اقتحام

صعوبات الرئاسة، وتجعله كريشة ترتجف لدى هبوب كل ريح، ومن الضرورة أن يكون غير ممازح، لأنه متى لازم المزاح سخرت منه الناس واستهجنته وربما استقلت بعقله فلا يعود أحد يعتبر أحكامه مهما كان حازماً.

ولا شك أن وجود صفات كهذه في الشخص الذي يتناول زمام الحكومة قد تستلزم وجود نتائجها ما بين أتباعه وحوشيه، الأمر الذي له دخل كبير في واجبات السياسة. أما العكس فبالعكس، وذلك كالمركز الذي تتوقف استقامة أقطاره على استقامة وضعه، فبمقدار كونه مستقيماً تستقيم، وبمقدار كونه منحرفاً تنحرف.

ثانياً حالة الاستواء: إن أعظم المقومات لصحة السياسة وإقامة الحق هو أن يكون مجرى شرائعها متساوياً على كل أبنائها بدون أدنى امتياز بين الأشخاص أو تفريق بين الأحوال، فلا يجب الأخذ بيد الكبير ودفع الصغير ولا الالتفات إلى الغنى والأعراض عن الفقير، ولا مؤازرة القوى ومواراة الضعيف، بل يجب معاملة الجميع على حد سواء كيلا يقع خلل في نظام الحق، لأن كل فئة من الناس لها منزلة في طريق السياسة تستدعى النظر إليها. فكما أن العظماء والأغنياء هو القوة الواصلة، كذلك الصغار والفقراء هم الآلة الموصلة، فلولا يد الصغير لم يطل ساعد الكبير، ولولا تعب ذوي الفاقة لم تتسهل متاجر أرباب الغنى، ولم تحرس أموالهم، ولم تقم قصورهم العالية وسرادقهم المشيدة، ألعل ذلك الغني عندما يأتي من مواطن ملاهيه ومسارحه إلى مسكنه الوسيع ويضجع على فراشه المصنوع من ريش النعام وينظر إلى رقوش حجرته ونقوشها، لا يفكر في ذلك المسكين الذي بعد أن يكد ويكدح طول النهار مقاسياً حر صيفه ومتكبداً برد شتائه لأجل تشييد ذلك المسكن وتنميق تلك

الحجرة، فيذهب إلى كوخه الحقير ويأكل خبزته اليابسة مع أولاده العراة الجائعين ثم يضجع على فراشه الخشن تحت لحاف الإعياء والوصب فهل كل هذا التباين لا يكفيه حتى يرغب في إيقاعه أيضاً في موقف الحق الذي يستوي عنده الجميع، وهل يسوغ لأرباب السياسة أن يقبلوا وقوع هذا التباين ويجحفوا بذلك المسكين الذي بدونه لا تصل قوتهم إلى مواقعها. أفلا يخافون من وثوب التسعة والتسعين وفرط عقد الجمعية؟

ولماذا يوجد حق لأصوات الأغنياء إذ ترن في قاعات السياسة ولا يوجد هذا الحق لأصوات بقية الشعب اللذين هم الجانب الأكبر والأهم، والذين بواسطتهم تقوم سطوة الممالك وقوات الملوك وعليهم يتوقف مدار السياسات؟ فلا شك أن لسان السياسة نفسه ينادي بوجوب حالة الاستواء ويصرخ ذد المستبدين.

ثالثاً: حالة المطابقة: إن منزلة السياسة من الهيئة الاجتماعية هي كمنزلة الدم من الجسد، فكما أن هذا السائل يقوم بتغذية الجسد وبدونه لا تثبت الحياة، هكذا السياسة تقوم بإعالة تلك الهيئة وبدونها لا يثبت النظام. وكما أن الدم يجب أن يكون مطابقاُ بمقداره ونسب أجزائه لما يحتاجه الجهاز العضوي، بحيث إذا لم تحصل هذه المطابقة – إن يكن من قبيل الزيادة أو النقصان – لا تلبث الأعضاء على صحتها، وتقع في حالة الاضطراب في وظائفها. هكذا ينبغي أن تكون السياسة مطابقة بقوانينها وشرائعها لما يقتضيه واقع الحال بدون زيادة ولا نقصان. ومتى عدمت تلك المطابقة زاغت الهيئة عن واجباتها واضطرب كل نظامها. وكما أن السائل الدموي يستلزم التنقيص عند زيادته

استدراكاً لوقوع الأمراض الالتهابية، والإزادة عند نقصانه دفعاً لنهوض العاهات الافتقارية، هكذا يجب أن تعامل الأحكام السياسية في محكوماتها حذراً من وقوع البلبال، فلا ينبغي أن يستعمل الحاكم الصرامة والقساوة والجور والانتقام مكان الرفق والشفقة والحلم والإغضاء، وبالعكس، يجب توقيع كل من الحالين في محله بحيث إذا زاد أو نقص يجب تعديله بحكمة حذراً من إخلاله بالواجب السياسي.

ولما كانت حوادث الهيئة الاجتماعية تختلف جرماً وموقعاً، كان لكل منها شأن يستوجب حكماً يلائمه ويطابقه، ولكل حكم قوانين تناسبه وتشاكله، وهكذا فتكون الأحكام وقوانينها مختلفة باختلاف الحوادث الجارية فمتى استعمل الواحد محل الآخر نشأ خلل عظيم في نظام السياسة يستدعي خلل الهيئة جميعها، فلا يصوغ تنزيل واجبات الكبائر منزلة واجبات الصغائر، ولا يجوز إيقاع الحوادث العظيمة في موقع الحوادث الحقيرة بل يجب إعطاء كل حكمه ليستوفى كل حقه.

وبما أن الأحكام والقوانين تعتبر كأجزاء تؤلف جسم الشريعة في عالم السياسة، وجب أن يكون كل من هذه الاجزاء ثابتاً على نقطة وضعه، وبناء على ذلك نرى أنه متى زاغ أحدها عن الوضع المعين له يقع حالاً في حركة الاضطراب، ويستفز البقية إلى مشاركته في تلك الحركة، ولا يرجع إلى سكونه ويسترجع حالته ما لم ينقطع تأثير الفاعل عنه، بحيث إذا دام متواصلاً ينهدم بناء ذلك الجسم ويتشتت شمل أجزائه حسبما يتم في الأجسام الخزفية.

ثم لا يستعمل الحرب مكان السلام ولا السلام مكان الحرب، لأن أحدهما يبدد والآخر يجمع، ومتى نزل أحدهما منزلة الآخر تزعزعت أساسات الهيئة الاجتماعية.

رابعاً: حالة المصلحة العامة: إن أهم دواعي السياسة وأعظم بواعثها هو النظر الدائم إلى المصلحة العامة وتواصل السهر عليها، بحيث مهما أتقنت السياسة نظامها وأحكمته ولم تلتفت إلى هذه المصلحة أو تغافلت عنها فلا تعتبر إلا كمساعد على نثر عقد الهيئة الاجتماعية الذي لا يمكن دوامه منظوماً ما لم تكن الملاحظة السياسية عاصمة له، إذ إن إهمال ما يسبب العمار هو تسبيب لوقوع الخراب والدمار، وهذه الملاحظة تنحصر جميعها في توقيع ما يؤول نفعه إلى العامة إجمالاً وأفراداً ودفع ما يفض إلى الضرر، وذلك يستريح على خمسة أركان، وهي تمهيد سبل العلوم، وتسهيل طرائق التجارة، وتقوية وسائط الصنائع والأشغال، ومساعدة الزراعة والفلاحة، وقطع أسباب التعدي.

أما **الركن الأول** الذي يناط بتمهيد سبل العلوم،فهو يتضمن المساعدة على تشييد المدارس وتسهيل الدخول فيها أمام كل من يرغب، وترقية الناجحين بالدراسة على قد الاستحقاق.

وأما **الركن الثاني** الذي يلاحظ تسهيل طرائق التجارة فهو يتوقف أولاً على تقريب أبعاد الأسفار بواسطة إصلاح الطرقات، وثانياً على إزالة مخاوف ومعاثر الطرق وتوطيد دعائم الأمان والسهولة، وثالثاً على وضع حدود وأنظمة تجري على كل أرباب الحرف بحيث لا يستطيع أحد تجاوزها، ورابعاً وأخيراً على منع كل الصعوبات التي يمكنها صدم تقدم التجارة وإيصال كل عائق لسيرها.

وأما **الركن الثالث** الذي يخص تقوية وسائط الصنائع والأشغال فهو يتأسس أولاً على إثارة همم ذوي الاختراعات بتعظيم جوائزهم ورفع شأنهم،

وتهيئة ما به يمكنهم من اقتطاف ثمرات أتعابهم، وثانياً: على توسيع دوائر الأدوات الصناعية وتضييق مساحة التلف والمصاريف، وثالثاً على رفع كل ما يوقف الخطوات على الهجوم إلى معاناة الأشغال العظيمة، وأخيراً على المساعدة في تكبير المعامل وتسهيل مجراها.

وأما **الركن الرابع** الذي يتعلق بمساعدة الزراعة والفلاحة فهو يقوم برفع الجور عن الفلاح، وفتح الطريق للزارع، وتعجيل خطوات الحصاد، ومنع ظلم العشار، وبطش المحتكر، وملاشاة كل مواقع البدار وتسديد جميع مطاليب الأرض.

وأما **الركن الخامس** الذي يشمل رفع أسباب التعدي فهو يستوي على ثلاث قضايا فقط، وهي حماية المتاع وصيانة الاعتبار ووقاية الأرواح.

الدعامة الثانية

تثقيف العقل

إنه إذا فحص الجوهر الإنساني من حيث فطرته الأولى وأصله الطبيعي إنما يشاهد لامعاً بكل الصفات الساذجة البسيطة حسبما يتبين ذلك من كل إنسان يتربى منفرداً عن ازدحامات عالم المخالطة.

ولما كان عظم لطافة هذا الجوهر وشدة احتياجه إلى وقاية نفسه سبباً فعالاً لقبوله التأثر بكل صورة تلوح له، والتخلق بكل سمة يحافظ بها على ذاته، كان انضمامه في سلك الجمعية إذ ذاك موجباً لانطباع صور الحوادث الاجتماعية والوقائع الأدبية على صفحات قلبه، وتطبعه بأخلاق وطباع بها يمكنه أن يعارك ويزاحم أمواج العالم الثرى ويعيش تحت لواء حوادثه.

وهكذا فقد أفضت به أخيراً كثرة تقلبات الأحوال والأجيال إلى أن يفقد كل أطوار تلك الفطرة الأولى ويصير من أشر المخلوقات وأوحشها.

ومن ثم لا يعد الإنسان قادراً على الدخول في دائرة التمدن الذي يطلب سلامة الطباع إلا إذا كان متزيناً بتثقيف العقل الذي يعتبر كآلة عظيمة، بها يمكن لكل من البشر أن يسترجع إلى طبيعته ما أفقدها التوحش.

ولا يتم هذا التثقيف إلا بالتروض في العلوم والفنون ودراسة المعارف الطبيعية والأدبية، على أنه أمر محقق كون العلم يخلق في الإنسان قلباً نقياً وروحاً مستقيمة، ويجعله ظافراً بكل الصفات الصافية، وناقراً عن كل ما يشين الجوهر الإنساني، ولا يترك له سبيلاً إلى التفكر في الأمور الدنيئة والأميال المنحرفة، الأمر الذي تشتق منه كل أفعال الشر، وعليه تبني كل دعائم التوحش.

فكيف يفكر الإنسان مثلاً في دناءة السلوك عندما يكون الفلك طائراً به إلى أعالي الأجرام السماوية حيثما يرى ألوف ألوف وربوات ربوات من النجوم التي هي شموس هائلة الحجم وكل منها جالس على عرش الفضاء ثابت في مركزه وتدور حوله كواكب سيارة مختلفة الأبعاد والأشكال، وجميع ذلك له من السمو والعظمة ما يخبر بعظم أعمال الله تعالى.

وكيف يأخذ بذهنه الهتك بالقريب بينما تكون الطبيعة هاتكة له أسرارها ومبدية لديه غوامضها، فإذا نظر إلى الأرض يرها تدعوه إلى تمييز تراكيب طبقاتها وتعديد مفردات عناصرها ومعرفة نسبة كل من موادها إلى غيره. وإذا تأمل في الحيوان رآه باسطاً أنواعه لدى حكمه وطالباً منه فصل كل صنف عن الآخر. وإذا لاحظ النباتات رآها كأنها ندعوه إلى معاينة عجائب نموها وماهية جوهرها وكيفية تغذيتها وعملية إنتاجها وتأثير خاصياتها، وكأنها تكلفه إحصاء كل من أنواعها وتحديده تكليفاً فوق وسعه.

وكيف يرتضى بعمل المنكرات حينما تكون الكيمياء مقدمة له مشكلاتها وطارحة عليه مسائل غوامضها، فما ينتهي من معرفة صفات عنصر ما وعلم نسبة اتحاده بغيره، وكيفية قوامه إلا ويبرز لديه عنصر آخر ويدعوه إلى تفنيده فيذهب خابطاً في عباب المشكلات حيثما يقابله مولد الحوامض بإيقاده وإنارته، ويطارحه مولد الماء برشاقته ولهيبه، ويناقشه حامل النوار بلمعانه وإضاءته، ويدهشه الذهب بثباته وقفله، وتذهله الفضة بوضاءتها ونقاوتها، ويلطمه الحديد بكثافته وصدأة، وحيره الزئبق بفراره ونفاره.

وكيف يسمح لأمياله أن تسرح في عالم الشرور والمعاصي حيثما تكون الجغرافية سارحة على ظهر الكرة الأرضية المملوءة من عجائب الخليقة وغرائب الحوادث، فتارة تطير به إلى قمم الجبال العالية فيرى ما بها من الأودية العميقة والسلاسل المستطيلة والينابيع الجارية، فيفكر فيمن سبب المرتفعات ومن أحدث المنخفضات ومن جميع المياه. وأحياناً تمر على السهول الواسعة والبحار الشاسعة والأنهار المتدفقة، فيقف متفكراً فيمن جمد اليابسة وجمع السوائل إلى مكان واحد. وأوقاتاً تسوح به في الأقاليم والأقطار، فيستوقفه اختلاف العرض والطول في ميدان التأمل بتباين المناخات والأهوية، وطوراً تترحل به إلى بلاد لا عدد لها وأماكن لا تحصى، وجميعها تختلف باختلاف المواقع والوقائع، فيقف متحيراً فيما تحويه الأرض من الأمم والقبائل المختلفة في المذاهب والمشارب والهيئات، ومندهشاً لما يراه من أحوال البلدان والسياسات والشرائع، ومتمعنا فيما يعانيه من الصنائع المتنوعة الأشكال والتجارات المتشكلة الأحوال، وهكذا يطوف هذا العام إلى أقاصي العالم بدون أن يترك له سبيلاً للجولان في عالم المآثم وهو جالس على وسادته غير مبارح صديقاً ولا مفارق حبيباً.

وكيف لا يبدل الأعمال الرديئة بالصالحة عندما يكشف له التاريخ حجب الأجيال الغابرة ويطلعه على كثيرين من البشر الذين كانت أعمالهم سبباً لأحوالهم، إن رديئة فرديئة أو صالحة فصالحة، ويظهر له كم وكم من الناس الذين بواسطة سمو أفعالهم قد بلغوا أسمى المراتب وأعلى المنازل، وكم وكم من الناس الفذين بواسطة دناءة أفعالهم قد هبطوا إلى الحضيض. لا بل يظهر له أن كثير من الممالك العظيمة القوة والراسخة الأركان قد أفضت بها قبائح السلوك إلى الاضمحلال والملاشاة، وكثيراً من الولايات الصغيرة قد آلت بها قوة الأطوار الحميدة إلى الاتساع والامتداد ورفعتها إلى المجد والكرامة، وخاصة يظهر له أن أفعال الخشونة والتوحش ما كانت تبدد الممالك وتستأصل الملوك فقط، بل كانت أيضاً تشتت العباد وتهدم البلاد مهما كانت حصينة وغنية.

أفلا يشعر بحركة غامضة في أعماق قلبه تدعوه احتقار العظمات الإنسانية والفخفخات الكاذبة الخيالية وتجذبه إلى الاتصاف بالصفات السليمة والتخلق بالأخلاق الحميدة، وذلك حينما تمتطي تأملاته السرية خيول التاريخ وتجري لفي برية سوريا مثلاً حينما يشاهد أن عظمة ذلك الإقليم القديم العهد والكريم التربة والأصل قد استحالت بفعل الأجيال الخشنة إلى دمار مهول، بحيث ما عاد يرى سوى خرابات تلقى الكآبة على الأبصار وعدد قليل من الشعوب المفتقرة يدل تلك العظمات السابقة والمجد الزاهر والغنى الواقر، أفلا يطرق إلى الأرض تأسفاً إذ يرى صور مدينة الفينيقيين التي كانت مركز تجارة العالم ومحط رحال الآمال قد صارت نسياً منسياً ولم يبق منها سوى شباك

الصيادين، أفلا يرتعد لدى سطوة الحدثان حينما يرى أورشليم مدينة داود ومحل عظمة سليمان قد أصبحت قرية لا يذكر منها سوى المحلات التي لم تحفظها سوى يد القداسة، أفلا يضطرب مخافة من بوائق الزمان عندما يرى أنطاكية مدينة الله العظمى ذات الأسوار العالية والحصون المنيعة قد أضحت رمة مضجعة في قبر الوبال، أفلا يرتجف لدى هيبة الأيام إذ يرى مدينة تدمر التي كانت مبنية بالصفاح والعمد قد صارت أطلالاً دراسة ورسوماً بالية ولا عاد يشاهد فيها سوى عوامد هابطة وعضائد ساقطة، وهياكل مهدومة، أفلا يهجس كرباً إذ يعاين أن منبج ذات الصيت الرنان قد غدت كالسمك الذي لا صوت له، أفلا يقف محتاراً عندما يصعد على رأس جبل سمعان ويرى أن جميع ما كان يحويه من المدن العظيمة والقرى الخصبة والمزارع الناضرة والأديرة العامرة والكنائس الرحبة قد صار خراباً تاماً ودماراً لا مزيد عليه، بحيث لم يبقى سوى بعض رسوم وأشكال وأخيراً أفلا تسحقه صواعق الاشمئزاز عندما يتأكد أن جميع هذا الخراب هو نتيجة الجهل والتوحش؟؟؟

فبالإجمال نقول إن العلم هو الفاعل العظم لتثقيف العقل، والمروض الأكبر لجماع الطبائع، والسبب الأهم لتشييد التمدن والعمار، إذ أنه يرفع أفكار الإنسان إلى الحقائق السامية فلا تعود دائرة على مستحقرات الأشياء، ويرسم في مرآة ذهنه صور الكائنات الدقيقة، فلا يعود هاذياً بخزعبلات الأمور، فتنطفئ من قلبه توقدات الحسد بنظره إلى زوال المحسودات، ويطرد من صدره ضواغط الطمع بإدراكه حقيقة المطموعات، وتتلاشى من روحه بقية الأطوار المنتجة رجسة الخراب كالقساوة التي أغرقت مراكب مصر، والالتطاخ الذي هدم قصور أشور، والتغفل الذي كسف شمس فارس،

والطمع الذي كسر صولجان مكدونية ، والضغينة التي مزقت أحشاء فلسطين والكبرياء التي شلت عرض الروم ، والخيانة التي قلبت ممالك الرومانيين، والبغض الذي شتت شمل لبنان وزعزع أركان دمشق، ثم تنمو فيه الصفات الداعية إلى جلالة العمار كالشجاعة والنباهة والمحبة والاتضاع والدعة والإحسان والوفاء والأمنية، إذ إنه يعود خبيراً بغوائل تلك الأطوار الطالحة وعليما بنتائج هذه الصفات الصالحة.

فبدون تثقيف العقل إذن لا يتصف الإنسان إلا بصفة البهائم التي لا عقل لها، ولا يمكن أن يدعي متمدناً قط.

الدعامة الثالثة

تحسين العوائد والأخلاق

إن النظر إلى عوائد البشر وأخلاقهم يعتبر كأعظم دليل على حالة تمدنهم ومقامه. فكلما كانت هذه العوائد والأخلاق جيدة كان تمدن أربابها جيداً أو غالياً. وكلما كانت قبيحة كان قبيحاً ودنيئاً.

ولذلك يجب على الشعب الداخل في دائرة التمدن أن يبذل الاعتناء كثيراً في تحسن عاداته وأخلاقه كيلا يكون تمدنه من باب الدعوى لا الحقيقة، كما يشاهد ذلك في كثير من الأمم. ولما كانت العوائد والأخلاق تارة تلاحظ على الخصوص وأخرى على العموم، وجب أن يكون كلامنا عليها خاصاً وعاماً.

أولا الخاص: إن المراد هنا هو النظر إلى تحسين العادات والأخلاق الشخصية، أي التي تخص الشخص المفرد، وهي إما أنها طبيعية أو أدبية، فالطبيعية تدعى ملكات والأدبية عادات، وجميعها ترجع إلى التطبع لأنه الأصل لجميع هذا الباب، ولذلك يجب أن يكون المدار عليه فنقول:

إن الإنسان حينما يولد على الأرض يكون خالياً من جميع العوائد والأخلاق جيدة كانت أو رديئة. ولا يوجد فيه شيء سوى الاستعداد إلى التطبع، فإذا كان استعداده جيداً مال إلى اقتباس الجيد، وإذا كان رديئاً مال إلى اقتباس الردئ، فلا يوجد لتحسين العادات والأخلاق والشخصية أهم من إخضاع الاستعداد الإنساني منذ نعومة الظافر إلى التطبع بالطبائع الحسنة والتخلق بالأخلاق الجيدة. على أنه في هذه المدة من الحياة تكون الطبيعة شديدة الخضوع لقبول التأثيرات والانفعالات، ولذلك فكل عادة وجدت في الحداثة ولم تستدرك، طبعت أثرها على الفطرة وكانت ملكة عند الكبر لا تسمح باستئصالها إلا تحت مشاق التعب الزائد، وهكذا كل خلق، ومتى حصل الانتقال إلى سن البلوغ فصاعداً صار التطبع صعباً جداً على الطبيعة، ولا يعود للملكة سلطان عليها بل تصبر خاضعة لغلبة العادة التي ليس لإزالتها صعوبة.

أما كيفية ذلك الإخضاع للاستعداد الإنساني فهي تتم بإمالة الأميال عن التطبعات بالعوائد والأخلاق المنكرة وإلحاقها بالمقبولة، ولا يمكن التسليم يكون الشخص متمدنا طالما تكون عوائده، وأخلاقه عير موافقة لما يقتضيه التمدن من التعوج والتخلق.

فلا يتفق التمدن من ملكة السكر لأن ذاك يطلب تقوية أفعال العقل بتصحيح التصور وإصلاح الحكم وتنشيط الذكر. وهذه تقتضي إضعاف الأفعال العقلية بإيقاع الخمول وإفساد الأحكام وعزة النفس، وهذه تستدعي قبح الأوصاف كالتوحش والكثافة والدناءة. ذاك يطلب الالتفات إلى الأعمال والأشغال والنشاط، وهذه تطلب البطالة والتواني والكسل، ذاك يستميل العقول إلى المحافظة على الصحة ورفع أسباب الأمراض وهذه تطرد كل قانون

صحي وتفتح سبيلا عظيماً لنهوض كل مرض عضال كالحدار والتيبس وسوء الهضم والاستحالات الآلية ونحو ذلك.

ولا يتفق التمدن مع عادة النهم، لأن ذلك يطلب الاقتصار على كفاية الطبيعة طبق إنسانيتها، وهذه تطلب تحميلها فوق طاقتها فتكسيها أخلاق البهيمة، ذلك بطلب الترتيب في المعيشة حذراً من وثوب الاحتياج، وهذه تقتضي كثرة الانهماك فتكون داعية إلى الحاجة.

ولا يتفق التمدن مع ملكة الفجور، لأن ذلك يستلزم الطهارة والعفة، وهذه تستوجب الدنس والشهوة، ذلك يلتمس الوداعة والتعقل، وهذه تبغي الشراسة والحمق، ذلك يطلب الاستحياء والأدب، وهذه تقتضي الوقاحة والعهارة.

ولا يتفق التمدن مع خلق الكذب لأن ذلك يطلب الاستقامة والحقانية، وهذا يقتضي الاعوجاج والتزوير، ذاك يستلزم الأمانة والثقة، وهذا يستدعي الخيانة والنكث، ذاك يدعو إلى النصيحة والتحريض، وهذا يستميل إلى الخديعة والغش، ذاك يجعل الإنسان مكرماً محبوباً، وهذا يصيره مهاناً مبغوضاً. ذاك ينهج لصاحبه طرق السعادة والغنى، وهذا يطوحه في وهاد النحس والفقر.

ولا يتفق التمدن مع عادة النميمة، لأن ذاك ينادي بقبح الكشف عن الأعمال السرية للبشر، وهذه تصرخ بإعلانها لدى الآفاق. ذلك يسدل ستار الخفاء على كل النقايص والعيوب، وهذه مهتمة بخرق كل ستار، ذاك يفتح صدر الإنسان لدخول الأسرار فيه، وهذه تغلقه وتجعل صاحبها مجتنباً من جميع الناس وممقوتاً.

ولا يتفق التمدن مع خلق الغضب، لأن ذاك يطلب الهدوء والتأني في الأمور، وهذا يطلب الضوضاء والعجلة، ذاك يطلب إرضاء الناس واستمالتهم، وهذا يستلزم إسخاطهم وتنفيرهم، ذاك يقتضي البشاشة والطلاقة، وهذا ينتج الوجوم والقنوط، ذلك يجذب بركات الجماعة إلى وجه صاحبه، وهنا بسبب اللعنات.

ولا يتفق التمدن مع الجبن، لأن ذلك يطلب الثبات والصبر على الأهوال والمصائب، وهذه تطلب التقلقل لدى كل حادثة. ذلك يقتضي الإقدام على تشتيت المخاوف والمزعجات، وهذه تقتضي الفرار من كل شيء، ذاك يستوجب استصغار المستكبرات، وهذه تتناول استكبار المستصغرات.

فجميع هذه العادات والأخلاق الشخصية وأشباهها معاص لم يذكر لا يمكن اتفاقها مع قوانين التمدن، ولذلك يجب استئصالها من الناس وتربيتهم على أضدادها ولو دعى الأمر إلى صعوبة قصوى، وبهذا يقوم التحسين المطلوب هذا في الكلام الخاص.

ثانيا العام: إن كرور أزمنة الجهالة على بعض البشر وتقلبات الظروف ما بينهم قد أحدثت فيهم كثيراً من العوائد والأخلاق التي تنكر عليهم إذا دخلوا في نظام التمدن ولذلك يجب أن يجتهدوا كثيراً في إزالتها ويعتاضوا عنها ما يناسب روح العصر.

فلا يغتر أولئك المدعون بالتمدن إذا كانت بيوتهم مشحونة بالأثاث العقيم كالفضة والنحاس وأنواع الخزف والأقمشة ولم يوجد فيها كتائب أو صحفية يومية ولا أدنى وسيلة للعلم، وإنما يعتبرون متمدنين إذا كانوا يعلمون أن زينة العقل تفوق زينة المسكن ويتمسكون بأهدابها، كما يعلمون أن هذه نتيجة

الأجيال المظلمة التي كانت تنطبق على الفخفخات والعظمات الفارغة، وتلك نتيجة الجيل المنثور الذي لا يقبل ما لا نفع فيه.

ولا يعتد بهؤلاء المتظاهرين بالتمدن إذا كانت رؤوس نسائهم تتشعشع بأنوار الأحجار الكريمة ذات الثمن الوافر والعديمة المثمرة، ولم يكن في ذلك الرؤوس أدنى شعاع للعقل والأدب، بل يعتد بهم إذا رفعوا جميع تلك الظواهر الخيالية وأثبتوها للنفقة على تعليم نسائهم وتهذيبهن، كما لا يعتبرون أصلاً مهما ضيقوا أثوابهم وأطالوا خيزراناتهم وهرولوا مسرعين إذا لم يوسعوا أفكارهم ويمهلوا جماع أميالهم المنحرفة.

ولا اعتبار أولئك الذين ينفقون المبالغ الوافرة على تجهيز المآدب الفاخرة والولائم الحافلة في أيام المواسم والأعياد، ولا يدفعون فلساً واحداً لعمل الخير، لكنهم يعتبرون إذا جعلوا ذلك الإنفاق مخصوصاً للأعمال الخيرية، وعلموا عظمات المآدب والولائم إنما كانت معتبرة في هياكل الوثنيين عند تقديم الضحايا لآلهتهم يوم الموسم أو العيد.

ولا يعدون مع المتمدنين أولئك الذي يتسابقون مسرعين إلى منازلهم بعضهم البعض في الأيام المدعوة عندهم بالرسمية خابطين تحت شمس الصيف وغباره وخائضين في أمطار الشتاء وأوحاله، ولا يوجه أحد منهم خطوة واحدة إلى فعل الخير، وإذا وجد منهم من يقصد ذاك الفعل سد الآخرون طريقة بحجارة الملامة كما يرجمونه بها لو تأخر في مسابقتهم إلى قضاء تلك الرسوم الباطلة.

ولا يقبل التمدن أولئك الذين تثور في أعراسهم صياحات زغاريد النساء وصراخات تجويفات الرجال خاصة حينما تكون أنغام آلات الطرب داعية إلى

الهدوء والسكوت، فهم يجمعون بين المتضادات إذ يتركون الآذان مصدوعة ومرتاحة معاً، فلا يشتمون رائحة التمدن طالما لا يزالون معتنقين هذه العادة القبيحة.

ولا ينخرط في سلك المتمدنين كل أولئك الذين إذا دخلت المنية إلى بيت نهضت ضوضاء الولاول وطارت صرخاتها الذريعة إلى قبة السماء بحيث تقشعر الأبدان انفعالاً منها ويستولى الكمود والانزعاج على كل سامعيها، ولكن قد يضمون إلى عقد التمدن بشرط أن يبطلوا العادة القبيحة ويعلموا أنها موروثة من أزمنة عرب الجاهلية الذين كانوا يكلفون الطبيعة الإنسانية في هذا الأمر ما تستعمله بعض الحيوانات. كما يعلمون أن إنسانيتهم بهذا المقدار ساقطة حتى إنها لم ترث من هاتيك القبائل سوى تلك العادة المستقحة وتركت كل ملائحهم الجليلة نظير الكرم والنخوة والحماسة وحماية الجار وإكرام الضيف وهلم جرا.

وهكذا لا يدعى القوم متمدنين إذا ظلوا يجعلون الحزن شريعة ظالمة كثيرة الكلفة حتى إنها لا تسمح قط لمن يدخل تحت لوائها أن يستعمل أقل شيء من لوازم الطبيعة إلا بعد بضع سنين.

فلا يستطيع المحزون أن يخفف عنه حرارة الصيف بلبس الثياب البيضاء ولو أفضى ذلك إلى الإضرار بصحته ولا يقدر على تنقية جسمه من الأوساخ وتنشيط وظيفة التبخير بذهابه إلى الحمام ولو افترس القمل جلده وأهلكه الاستسقاء ولا يستطيع الخروج إلى البساتين لجل استنشاق الهواء النقي ولو تسرطن جميع دمه، ولا يؤذن له بسماع آلات الطرب أو أصوات الغناء ولو أوقعته الأكدار في داء "النورستانيا". ولا يصوغ له أن يصنع في بيته شيئاً من

المأكولات الطيبة إذا اشتهتها نفسه حذراً من قول الناس عنه أنه قليل حس، ولكنهم قد يحسبون من أرباب التمدن متى علموا أن الحزن شريعة تطلب عكس ما ينسبون إليها، وأنه انفعال كلما حدث في النفس لا يكف عن استنهاض ضده إيقاعاً لرد الفعل، وكلما كان وقوع الفعل شديداً وسريعاً كان رده شديداً وسريعاً.

وهيهات أن يحسبوا متمدنين كل أولئك الذين يشترعون إذلال النساء وتحقيرهن وأهانتهن وضربهن أيضاً بناء على أن هذا الجنس ساقط ولا يستحق أدنى اعتبار، بحيث لا يعلمون أنم الأمر بالخلاف وأن الجنس النسائي جوهر لطيف للغاية وأهل لكل كرامة ومستحق كل الالتفات إليه، والطبيعة نفسها تدعو إلى إكرامه ومداراته، إذ إنه الجزء الأهم في الإنسانية والمصاعد العظيم لقيام الجنس البشري والينبوع الأول لتغذية الحياة ومواساتها في زمن قصورها.

ولا يحسب متمدنا ذلك الرجل الذي يزعم أن الإفراط في معاشرة النساء ومخالطتهن من واجبات التمدن غير عالم أن كثرة التهافت على المرأة تجعل الرجل ذليلاً لديها، وكلما عز نفساً ارتفع عندها مقاماً.

ولا تظهر سماء التمدن على أولئك الذين عندما يتكلمون أو يتخاصمون يفغرون أفواههم ويرفعون أصواتهم إلى درجة تمزيق أوتار حناجرهم حتى يكادوا يشاركون الجمل عجعجته والحمار في نهيقه، مع أن غاية التمدن هي نزع كل سمة بهيمية عن الإنسان.

ولا تحسن ثياب التمدن على أولئك الذين ينزلون الخرافات منزلة الحقائق، وينذرون بها على الآفاق غير عالمين أنه لا يوجد شيء يدنس تلك الثياب النقية

ويلطخها نظير اعتناق الأكاذيب والأباطيل وإشاعتها، فهم تارة ينسبون إلى بعض الحيوانات خاصيات لو أمكن وجودها لكان الإنسان خليفاً بها وذلك كنبح الكلب دلالة على حدوث مصيبة، ونعق البوم إشارة إلى وقوع خراب، وهرب الطيور علامة على قدوم وباء، وتارة يتهمون الأفلاك بما تفعله الظروف والأقدار ينسبون إليها كل الحوادث التي تتم على الأرض عموماً وخصوصاً، فيعطون الحرب للمريخ، والسعد للمشتري والنحس لزحل والذكاء لعطارد، وخفة الروح للزهرة، والصقاعة للقمر، وطبخ المعادن للشمس، هذا عدا أمور لا تعد ولا تحصى ينسبوها إلى كل من هذه الأجرام التي تقسم بذواتها أنها لا تعرفهم، ولم تطرح عليهم قط لا حربا ولا سلاماً ولا سعدا ولا نحسا، وكذلك ما ينسبونه إلى العين من التأثيرات، وإلى الأحلام من التفسيرات.

فلا يمكن لأحد أن يحسن عوائده وأخلاقه التمدنية إلا إذا رفع من فكره الاعتقاد بمثل هذه الخرافات عالماً أنها واصلة إليه من خرافات اليونانيين الذين كانت عباداتهم وطقوسهم تسمه لهم بأن يعتقدوا هذه الأضاليل.

وبالإجمال نقول أنه يوجد شوارد شتى مما يقتضيه مقام هذا الكلام العام قد عدلنا عن جمعها حباً في الاختصار ونختم سياق هذا الحديث قائلين:

أنه لا يمكن للتمدن أن يقبل في نظامه أي عادة قبيحة أوة خلق ردئ، ولا يقدر أحد على الدخول تحت ألويته ما لم يحسن عادته وأخلاقه.

الدعامة الرابعة

صحة المدينة

إن أول شيء يستدل به على تمدن أمة ما أو توحشها هو النظر إلى حالة مدينتها، فكلما كانت المدينة صحيحة كان التمدن صحيحاً، وكلما كانت سقيمة كان سقيماً، أما كيفية هذه الصحة المدنية فهي تقوم تحت جملة أحوال وأخصها ثلاثة.

أولاً النظافة: إنه لا مناص للمتمدنين من بذل مزيد الاعتناء والاجتهاد في تنظيف أسواقهم ومنازلهم تسديداً لطلب الطبيعة نفسها، لأن المراد من ذلك ليس نوال الغاية الأدبية فقط بل والغاية الطبيعية أيضاً وهي إراحة الطبيعة الحيوية مما يقلق نظامها ويزعج وظائفها، ولا يوجد خطاب أشد تأثيراً على هذه الطبيعة من دخول المواد الغريبة عنها إليها لا سيما إذا كانت فاسدة، فكما أن بعض الجواهر المعدنية لغرابة تركيبها تزعزع أركان البناء العضوي للجهاز الحيواني وتسلب مجموع حياته متى دخلت إليه، هكذا تفعل أيضاً الانبعاثات الفاسدة للأقذار والأوخام عندما يحملها الهواء ويدفعها إلى عضو التنفس حيثما يتناولها الدم ويمر بها إلى مواقع التغذية.

فكم تقاسي الطبيعة من الاضطرابات المرضية المميتة، وكم تلتمس الإنقاذ بلسان حال الانزعاج الوظائفي عندما يهاجمها مثل هذه المواد الغريبة، فهي السبب الأعظم لتهييج الحميات الخبيثة كأنواع التيفوس والتيفؤيد، والسبب الأهم أيضاً لتمهيد طرق الوافدات الوبائية المهلكة كأنواع الطاعون والهواء الهندي "الكوليره".

وبالإجمال نقول إن الغاية الوحيدة للطبيعة هي قبول ما يناسبها لقيام حياتها ودفع ما يستنزل عليها صاعقة الموت بمغايرته لها حتى ولو كان صادراً عن ذات فعلها. ألا ترى كيف أنها تجتهد بطرد التراكيب الصديدية التابعة للالتهاب العضوي إلى الخارج بواسطة النفث أو الغائط أو الاستطراق من المركز الانفعالي إلى بعض جهات المحيط البدني، حتى إذا لم يمكنها تتميم العملية ودخل الصديد الفاسد إلى التيار الدموي ألقى عليها رعدة الاضطراب بإفساد جميع كتلة الدم وأمانها بعد نزاع شديد.

فإذا كانت الطبيعة لا تقبل ما يغرب عنها ولو كان آخذاً صدوره من ذات أجزائها لعدم نفعه لها، فكيف تقبل ما يكون غريباً وأجنبياً معاً؟ وبما أن الأقذار والأوساخ لها أشد الفعال السمية كما سبق، فلا يصوغ والحالة هذه تغافل أرباب التمدن عن ملاشتها والاعتناء الوافر بحفظ النظافة العامة للأسواق والشوارع وعلى الخصوص للبيوت والمساكن، فراراً من تلك التأثيرات الرديئة ومراعاة لحق المدينة، وإننا إذا نظرنا إلى العمل البديهي الذي تصنعه الحيوانات بتنظيف ذواتها كان لنا منها أفضل معلم على ضرر القذارة ووجوب النظافة، وأفضل مثال يقتدي به كل عاقل، إذ أن الحيوان لا يفعل إلا ما ترشده الطبيعة إليه طلباً لما يصلح شأنه ودفعاً لما يضر به.

ثانياً تمهيد الشوارع والأزقة: إنه مما يستدل به أيضاً على الحالة التمدنية لأي قوم ما يلاحظ على تنظيم ما في بلدهم من الشوارع والأزقة، فمن أهم الواجبات للداخلين في التمدن إذا إفراغ الهمة في تحسين هذه الشوارع وتنظيمها وتنظيفها. على أنه لا يسمح لهم التمدن فقط بترك الشوارع والأزقة ضنكة معوجة رديئة التبليط والتخطيط، بل يطلب منهم دائماً أن تكون مستقيمة عريضة ممهدة البلاط والخط، وذلك لأن الشارع أو الزقاق إذا كان ضنكاً يمنع سهولة تجدد الهواء ويعيق امتداد النور إلى مخادع الناس أو حوانيتهم فيجعلهم مستعدين للآفات الليمفاوية والدرنية كالسرطان والخنازير والسل والأورام الباردة والحدار واكمداد البشرة ونحو ذلك. وإذا كان معوجاً فإنه يعرقل انطلاق خطوات الناس، فتتعسر أرجلهم بعضها ببعض وتتلاطم صدورهم وتتقارع جباههم وحينئذ يكون السير في الزقاق عراكاً لا انتقالاً. وإذا كان وعراً غير ممهد، يصدع أقدام الماشين ويسبب سقطات البهائم تحت أحمالهم

الثقيلة، فتتهشم حوافرها وتنكسر أرساغها الأمر الذي ينافى ما تطلبه الشفقة على البهائم التي لا تطق لها لتشكو مصابها وتندب عذابها، هذا ما هلا المؤيدات التي يجدها الشتاء هناك لأن يصنع بحيرات من الأوحال والأطيان، بحيث يصبح الناس محتاجين لقوارب يخوضون بها ولا يبقى سبيل لسلوك العميان.

ثالثاً: ترميم الأبنية: ومما يؤخذ للدلالة على تمدن المدنية أو خشونتها ه ملاحظة أمر أبنيتها، ولذلك يقتضي لقاضي التمدن وفور الاهتمام في إصلاح شأن الأبنية والمشيدات ، وهذا يتوقف على فحصها كل مدة لمعرفة حالة متانتها وثباتها فراراً من حدوث الأخطار، لأنه متى ترك البناء جسراً لعبور السنين دون ملاحظة أمره، أحدثت فيه طولة الزمان تقلقلاً وتوهنا فيعود خطر هبوبه قريباً وخاصة في أيام الشتاء عندما يصبح عرضة لصدم الرياح وهطول المطار، فإن سقوطه إذ ذلك يكون عظيماً.

ولما كان تعرض الناس إلى اقتبال هذا الخطر كثيراً وجب على جميعهم تواصل التدقيق في حالة الأبنية من الداخل والخارج لكي يمنعوا بذلك أخطار عظيمة تتهددهم على ممر الدقائق، ويدخلوا إلى منازلهم بسلام آمنين.

الدعامة الخامسة

المحـــبة

هو ذا رنين صوت الكون العالي يدوي في أعماق العالم العقلي ليستفز سكون الأرواح الفكرية هناك إلى الطيران بأجنحة التخيلات السرية على دوح الوجود العام، حيثما يمكنها اختطاف تصورات تدعو القوة الحاكمة إلى أن تحكم بأن

الناموس الذي جعلته حكمة العناية ضابطاً لمجموع نظام الخليقة هو المحبة نفسها التي يختلف اسمها باختلاف موقعها.

فها هي المحبة قد صعدت على منبر ذلك النظام العظيم وشرعت تنادي بصوت الغوامض قائلة: اسمعي أيتها السماء فأتكلم وأنصتي أيتها الأرض، أنا التي قد جمعت شمل الذرات الأولية فكانت أجراماً تضيء في قبة السماء فلماذا دعيت التصاقاً؟ أنا التي قد وثقت هذه الأجرام برباط الانضمام فكانت أفلاكاً تدور حول بعضها البعض فلماذا سميت تجاذباً؟ أنا التي قد ألقت بين العناصر المختلفة فكانت ممتلكات تزهو بمجد الارتباط فلماذا لقبت تماسكاً؟ أنا التي قد فتحت في أجناس الحياة مسالك الميل إلى أن تحافظ على أنواعها فلماذا دعيت تناسلاً؟ أنا التي جمعت أشتات البشر إلى هيئة واحدة فكانوا متعاضدين في حروب الحوادث فلماذا سميت اغتصاباً؟ أنا التي قد قفلت مصارع البحر وكسرت كبرياء لججه فلماذا أدعى جزراً ومداً؟ أنا التي حيثما نزلت عمرت، وحيثما رحلت خربت، فلماذا لا يكترث بأمري؟ لما علمت أني أنا التي لا تغتني الطبيعة عني ولو طاردتني فلتأت الأقدار وتقف في وجهي، فلماذا ينكرني البعض؟ أنا التي قد اتخذني التمدن دعامة قوية له، وبدوني لا يثبت له بناء، فهل يهدمني إلا كل متوحش؟ ها قد عظمت دعوى المحبة وتفاقمت إلى الغاية، لأنها قد جعلت لنفسها ربط العالم بأسره، وجعلت جميع الأسماء المستعملة في التعبير عن القوة المؤلفة مترادفة على معناها، حتى كأنها تود أن تشرح بذاتها معنى تلك المحبة الجوهرية التي قد أنشأها البارئ بذاته أزلياً وأصدرها كلمة لتدبير الأكوان التي بها كانت وبغيرها لم يكن شيء مما كون.

مهلاً مهلا ما عاد يقدر هذا الكلام على إتمام سيره فقد حاولت الاستطراق إليه أشواط المنتقدين وها غبار أغراضهم بدأ يتصاعد عن بعد وكل منهم فاغراً

آتون فاه لقذف دخان التفنيد. فالبعض يعبسون وجوههم ويقولون: هو ذا يستنتج من هنا ألوهية حركه الموجودات، وآخرون يرفعون أنوفهم ويقولون: ها ها إنما يستفاد من هذا الكلام كون الكلمة ممتزجة مادياً في عموم الموجودات، وغيرهم يحملقون بأعينهم ويصيحون: هذا تعليم الماديين نفسه.هذا فضلاً عمن سيحرك عثنون لحيته ويقول: كيف يسوغ لمن لم يسلمك على عتبة مدرسة أن يتكلم في اللاهوتيات بشيء لم يسعه إدراكه، وعلى أي قاعدة أثبت حكم القوة الفاعلة للقوة المنفعلة وضعضع الروحيات بالماديات؟ ثم يشهد أبناء المدارس سيوف الشتائم مجردة من أغماد شهادات مزورة، ولكن ليأخذ حذره من انتقام الشبل عن الأسد. أما لسان الصواب فيقول لذوي الدقة في التأمل بصراحة: إن المراد من دعوى المحبة العامة ليس أن تكون هي نفس الذات الآلهية منبثة في جزئيات الخليقة، بل إنها هي القوة التي جعلها الله لتحريك الخلائق وتدبير الكائنات تحت أشكال مختلفة تدعي الناموس العام أو الناموس الطبيعي، وإذ ذاك يكون المراد هو الإشارة إلى أن الإنسان إذا كان يحب نفسه فهو ملزوم تبعاً لهذه المحبة أن يحب شبيهه بالإنسانية تسديداً لحق كماله الطبيعي، وذلك اقتداء بخالقه الذي عندما رأى جوهره ملء الكمال أحب ذاته بديهياً ، وبمحبته هذه خلق العالم محبوباً منه وجعل يدبر هيئة نظامه بما لم تدركه أفكار الطبيعيين، فأعطوا لكل حركة اسماً مبهماً، فينتج إذن أنه بالمحبة قد قام العالم جميعه، وبالمحبة تتحرك جميع الأشياء، وبالمحبة يثبت كل من المخلوقات على حجته، بالمحبة يحافظ الكل على أجزائه. وهكذا فبدون المحبة بين البشر المطبوعين على صورة الله لا يمكن قيام نظامهم الاجتماعي على واجباته، إذ إن المحبة هي القوة الوحيدة للتأليف بين أفرادهم المتفرقة على

وجه الأرض، والضابط الأول لنظام عالم تمدنهم، بخلاف البغض الذي ينزل منزلة القوة الدافعة بين البشر، فيبعدهم عن بعضهم البعض ويشتت شمل هيئتهم ويسلبهم راحة الحياة المحبوبة منهم جداً.

فلا يخطئ من يسمى المحبة آلهة الهيئة الاجتماعية بناء على ما يصدر عنها من المفاعيل الغريبة والتأثيرات العجيبة بين البشر، فلو أقيم لها وثن في هيكل الذهن، لكان على شكل غادة كلها جميلة وليس فيها عيب إذا تجمع من الصفات ما يتقرر في هذه الأبيات:

على وجهها نور الصلاح يلـوح ... ومن ثغرها عطر الفلاح يروح
وبرق الهدى من لحظها متألـق ... ومبسمها بالطيبات يفـوح
وفي خدهـا ورد المسرة ينجلي ... لنا وبه قطر الهناء صريـح
وقد لها يهتز عن طـرب وها ... على غصنه طير السلام صدوح
رعى الله قلباً فيه صاح صوتهـا ... وقاتل قلباً فيه ليس يصيـح
هي الأصل في الأكوان فهي مثابة ... لكل قلوب العالمين تريـح
بها تحسن الدنيا بها يفضل الورى ... بها كل شيء صالح ومليـح
لدى وجهها تجثو القبائل كلـها ... وكل سجود لا يعاب صحيـح
بها سائر الأجيال غنت وقد أتى ... لها من جميع المنذرين مديـح
هي الكوكب السيار في فلك الدنى ... به السعد يغدو والنحوس تـروح

فلا يسمح التمدن بالدخول تحت لوائه لأحد ما لم ينصب في هيكل قلبه تمثال المحبة مقدما له بخور الأفكار الطيبة والعواطف الحلوة وصارخاً بلسان الروح هكذا.

ها هنا يجلس التمدن على عرش الكمال، فتتخزق أمامه بيارق الخشونة ويمزق التوحش ثوبه، هنا تخطب بلابل السكون على منبر شجر السلام، فيصمت صياح القلق ويخفي الاضطراب صوته، هنا تزن صنوج الأفراح وتضرب طبول البشائر، فتخرس صراخات الأكدار ويتلاشى دوى المصائب. هنا يشرق صياح الإغضاء ويتلألأ شعاع التغاضي،فيغور ديجور الضغينة وتنجاب ظلمة الحقد هنا يتبدد دخان الانتقام وينقشع ضباب الغضب وينتشر أثير الصفح ويسطع ضوء الرضاء. هنا تنفطر صخور القساوة وتدك جبال الجفاء، فيجري سلسبيل الشفقة وتتمهد سهول الوفاء، هنا يفتر ثغر الابتسام ويضحك محياً الندى، فيجم جبين الاكتئاب وتدفع عين الشفقة. هنا يفرغ غرس التمني. هنا يثمر غصن الرجاء. هنا تدور الهيئة على مركز التمام والكمال. وأخيراً هنا ينثل عرش العبودية وترفع الحرية أعلامها.

فإذا كان يوجد للمحبة أثمار طيبة المخبر وشهية المنظر كهذه، كيف لا تحسب إذا دعامة راسخة للتمدن.؟ نعم إن التمدن لا يستغنى عن هذه الدعامة أصلاً، ولا يمكن أن يشاد بنيانه بدونها، كما لا يمكن وقوف قناطر الهيئة الاجتماعية إلا عليه، وهبك ذلك فلابد من وجود حد للمحبة لا تتجاوز لئلا تجانس ضدها يعمل الردى على أنه ولو كانت المحبة تحسب روح الانتظام البشري وحياته، فمع هذا يوجد لإفراطها كثير من النتائج المضرة كمعارضة

السلام مثلاً لمشروعات الحرب حيثما تكون هذه المشروعات واجبه لإصلاح حالة أدبية. وكالمعاملة الشفقة إذ تكون الصرامة داعية. وكوضع الإغضاء والصفح موضع الانتقام الذي ربما يوجد لازماً للتعليم. وكالإسفار عن الرضاء بينما تكون لوائح الغضب مطلوبة للتهديد. هذا عدا ما ينتج عن إفراط المحبة الخصوصية في قلب شخص خصوصي لمحبوب ما، حيثما تلغ درجة العشق، الذي ولو كان أصلاً تتفرع عنه جملة غصون صالحة لتمدن صاحبه كتلطيف الروح وتهذيب الطبع وترفيع العقل والذوق وحسن المعاشرة، فمع ذلك إذا بلغ أشده يترك وراءه جملة صفات تنكد عيش المبتلي به وتسلبه كل راحته كقهر الحرية الذاتية مثلاً، والاضطرار إلى البطالة، وإهانة الدراهم التي يدعوها البعض آلة الحياة، وتسليم النفس إلى تأثر الانفعالات الشتى الشاقة وما يعقبها كالحزن فالفرح، والخوف فالجراءة، والتعب فالراحة. هذا ما خلا التأثيرات الكثيرة التي تفترسه على ممر الأوقات.

فلا يبرح قلبه في حضرة المعشوق هدفاً لنبال العيون وموقداً لجمرات الخدود وموقعاً لرمح القوام وقدراً لغليان ماء المحيا، ولا تزال روحه في الغيبة أتونا لارتفاع لهيب الأشواق والأتواق، ومحلا لتناثر غرر الأفكار والتصورات، وميدانا لمسابقة خيول الأميال والعواطف، فيحيي الليل سهرا وأرقاً ويقضي النهار تعباً وقلقاً. إذ يرى ذاته ضارباً في أودية الوحدة والانفراد، حيثما يشاهد قلبه طائراً على أجنحة شياطين الوساوس والأوهام خائضاً في بحور الآمال والمطامع.

وهكذا يرى العالم بأسره كأنه مسرح للغرام، ويخال الكائنات جميعها تصور لديه ملعوب الهوى وتتنفس بأمراته وخواطره، فيظن الشمس ممثلة لديه أشعة

جمال الحبيب وبحسب القمر رسم وجهه مطبوعاً في مرآة الفلك. ويخال الأهلة قلامات من ظفره، ويزعم الكواكب أعيناً ترشق نظرات الرقيب. ويفترض الجبال منطوية على معنى أثقال الجوي، أو يظنها أوتاداً لتمكين خيمة السماء على عالم الهوى. ويرى السحاب سارقاً دموعه، والضباب ممثلاً ولوعه. لا بل يرى طوفان نوح كعبرته ونار الجليل كزفرته. ويتخذ الريح رسولاً لتبليغ الأشواق. ويرى الماء مقلداً له أنين العشاق، ويعاين الأغصان مترنحة بأعطاف المحبوب والأطيار شاكية لوعة فراقه، والأزهار نافحة بعطر نفثاته، والغزلان تغزل بنظراته وتفك طلاسم لفتاته ونفراته. وهاك هذا القصيد شرحا للعشق العتيد.

ماذا ترى في العشق ماذا تزعم ... يا أيها الصب الكثيب المغرم

هل فيه غير المؤلمات فدونه ... مقل تسيل وأكبد تتضرم

إني أضعت العمر في سوق الهوى ... بخسا ولم أربح سوى ما يؤلم

كم ليلة قضيتها وظبى الجوى ... تدمي الحشي فيسيل من عيني الدم

وكأن صوت خفوق قلبي مزعج ... صمت الظلام فيدلهم ويدهم

أصبو إلى برق الربوع إذا بدا ... وأضج ما لمعت لدى الأنجم

أبكي لدى خطرات كل تذكر ... والأفق يعبس والكواكب تبسم

والليل بحر هاج في عمق السما ... فغدا به زبد المجرة ينجمم

والشرق يلقي الشهب في جوف الدجى ... والغرب يبتلع الجميع ويهضم

وأنا أحار كأنني صب وفي ... دوح الحشا طير الهوى يترنم
في كل جارحة تدب صبابة ... وبكل عضو للغرام بدا فم
يا أيها الحب الذي تخفي لدى ... أصواته كل الحواس وتبلم
كم راح يخبط فيك يا وادي ألبكا ... قلب وكم سحقت بسيلك أعظم
ما أنت إلا دولة غزت الورى ... ويظلمها كل أمره يتظلم
أي السعادة في الغرام لربه ... وسحابة البلوى عليه تغيم
فحياته مسلوبة ودموعه ... مسكوبة وفؤاده متكلم
أيروق رب الحب نقطة لذة ... وعليه بحر المؤلمات عرمرم
إني أرى وقت النعيم كخلب ... يمضي وأوقات الشقاء تخيم
يا ريح من للجب عرض نفسه ... جهلا فسوف يذوب فيه ويعدم
سلني أيا باغي الهوى أخبرك عن ... أحواله فأنا به متقدم
إني علقت بذات حسن ما بدت ... إلا وعنها البدر راح يترجم
خود إذا نضت اللثام بدا لنا ... قمر بليل ذوائب متلثم
قد كلمت أحشاي بالمقل التي ... فيها الجمال مسلم ومكلم
مقل لعيني نرجس أو أكئوس ... لكن لقلبي أسيف أو أسهم
من وجهها نور الحياة لأعيني ... يجلي ونار فني لقلبي تضرم
ألم ألق نفسي مفرداً أو مصحباً ... إلا وشوقي نحوها مستلزم

شوق يمثلها لطرفي كلما غابت فينعم حيثما لا يغنم
فهي النسيم تطيب كيف سرت ولا عين ترى خطواتها إذ تقدم
ماذا على عيني فؤادي جنى حتى تعاقبه عقاباً يعظم
طبعت عليه خيال غالبة النهى فأحاطه لهب ودمع يسجم
فأنا بروح الحب مسكون فلم للنار أو للماء رحت أسلم
من لي بها غيداء فوق جبينها نور المحاسن والتعقل يرسم
وبسيف صاعقة الهوى ألحاظها قامت تحاربني فإني أسلم
أنا لست أنعم في الحياة ولا أرى حظاً سوى معها ففيها أنعم
وكذاك لا أهنأ بكل تكلم إن لم أكن معها بها أتكلم
فإذا نأت عني أعود على لظى وأروح في خرس وعقلي يعقم
أترقب الطرقات على ألتقى معها وإن حان التلاقي أبكم
ترنو إلى كذاك أرنو نحوها والوجد في نظراتنا متبسم
ونصافح الأيدي وألسنة الهوى تروي أحاديث اللقا وتترجم
تمضي فأرقب خطوها ونواظري تجثو لدى أقدامها إذ تقدم
وأعود في كبد تذوب ومقلة عبري وما عندي لسان أو فم
أقضى الدجى وأنا أحن إلى غد وكذا يجئ غد وعمي يصرم

يا أيها الغد كم غليت دمي علـى نار الرجا وإلى متى أتيتم
ولكم أحاطت بي تباريح الجـوى وغدا يساعدها القضاء المبرم
فهرعت نحو الروض معدوم القوى أبكى وأفواه الآزاهر تبســم
أترقب البلوى وقلبي راقـب عددا من الآمال لا يترقـم
قلب به استهوى الهوى عنفاً إلى وادى العنا فغدا يهيم ويلطم

وهاك هذه الأبيات الأخر تبياناً لم ينجم عن الهوى وما يعانيه أخو الجوي:

إلى م ذوات الخدر يجذبن أميالي وحتى م أهوى من تدافع آمالي
عيون المهى بالله كفى فلم تـذر لكن بقلبي موقعاً ربــه الخال
ويا ظبيات الإنس بعدا عن الذي يحب التي من حبه قلبها خـالي
صريح بألحاظ التي هدرت دمي فلاحظ لي منكن قط بإقبـال
مهفهفة تدنو الغصون لقدهـا ويعنو لسامي وجهها القمر العالي
ولما تلاقينا معا بعد هجمـة من البين أورت في الحشا كل اشتعال
لبثنا وكل مطرق دهشة اللقـا وصوت خفوق القلب ستنطلق البال
وما بيننا الأشواق تلعب في الخفا وتعرب عن حال الهوى ألسن الحال
يود التقاء العين بالعين شوقنا ويمنعه دمع لأعيننـا مالي
فوا عجبا من عاشق رغب اللقا ومذ ناله لم يغتنم غير بلبـال
ولكنني لما تنهدت حسـرة وحاولت إطلاقي لتيار أقـوال
تحرك في أحشائها ساكن الولا فألقت على نظرة تنعش البـال

وقالت بصوت أرجفته يد الهوى ... ولفظ كدرزان مبسمها الحالي
لك الله من صب حوى الصبر كله ... فليتك لي أبقيت وزن مثقال
فليس يليق الصبر إلا بمغرم ... إلى غير ما يهواه ليس بميال
أقلت الهوى عند السوى فلك الهنا ... لو مضى فالقصد بسطك يا قالي
فقلت يمين الله لم أذكر السوى ... وحسبك تبريراً شواهد أفعالي
أنا لست ممن ينشئ الهجر والقلى ... ولكنما أنت المقيلة إيصالي
غزوت جميع العقل مني والقوى ... فلم يبق لي نطق لأشرح أحوالي
فقد سكتت دون الهوى ألسن الهوى ... كما حط عن إدراكه الركن العالي
أراك فيعروني جمود وبهتة ... ولا عجب فالسحر في وجهك العالي
على عدد الانفاس ذكرك في فمي ... وشخصك في قلبي وعهدك في بالي
أبات الليالي والشؤون سواكب ... على ما أقاسي من شجون وأهوال
على فرط أتواقي على عظم لوعتي ... على طول أشواقي على سوء إقبالي
كذا بحكم العشق الظلوم بأهله ... ويفتنهم فليحذر الرجل الخالي

فينبغي استعمال المحبة إذا على قدر الواجب، وحسب الظروف التي تدعو إليها بدون زيادة ولا نقصان، أما ترى كيف أن الرئتين هما عضوا التنفس لا يتناولان من الهواء الذي به تقوم الحياة إلا ما يكفي لقيام هذه الحياة وما لا يؤثر عليهم ضرراً بحيث لو عرضتا بأجمعهما إليه لفتك بهما وبكل الأعضاء عموماً،

فلمنع هذا الفتك الشديد تحفظنا منه ضمن حجاب متين وأخذنا تفتكان به رويدا رويدا

فهكذا كل إنسان يجب عليه اعتناق المحبة عامة وخاصة وتحريكها حسب الاقتضاء بدون تسليم ذاته لجميع قواها حذراً من فتكها به وتمزيقها جلباب راحته. وبذلك تقوم هذه الدعامة الخامسة للتمدن أو السلك الذي به تنضم فرائد البشر إلى بعضهم البعض.

وبعد أن ختم الفيلسوف مقالته هذه أثبت عينيه في الأرض قليلاً كأنه يقصد إراحة فمه من كثرة التكلم وجعل يخط في الثرى. ثم نظر إلى القائد الذي كانت سحنته مرآة ترتسم عليها علامات صفيه وارتياح نفسه. وقال له: هاك دعائم التمدن، فإذا كان الإنسان قد خلق كاملاً في الإنسانية حاملاً صورة خالقة ومثاله، لا يكون عندنا شك إذ ذاك بكون هذه الدعائم مرتكزة في قلبه طبيعياً حاملة اسم الناموس الطبيعي حسب تعليم الإيتيكا (الفلسفة الأدبية) ولا يعود لنا ريب يكون تقلبات الظروف وكرور الأزمان قد أقلقت تلك الدعائم وأفسدت ذلك الناموس، وبناء عليه لا يكون عسراً تثبيت قلقلة الثابت وإصلاح فساد الصالح، ولا يحتاج هذا الأمر إلى مضى أجيال وقرون. فتنحنح القائد ونظر إلى الفيلسوف بدعة وقال له:

- إن جميع ما شرحته عن التمدن وكيفية أصوله وواجباته أعلمه جيداً. وطالما أتعبت ذاتي في نشره بين الآفاق ورفع رايته، ومع ذلك أشكر

فضلك على توضيحك إياه لي. ولكني لا أزال أرى انتشاره بين شعور مملكة العبودية عسيرا وشاقاً للغاية ولو كانت دعائمه مرتكزة على قلب الإنسان الطبيعي. والأمر الذي لا يقبل الجدال هو كون الفساد إذا أخذ سعته في محل ما ومكن ذاته خاصة تحت مجرى سنين مثيرة، فلا يعود إصلاحه إلا ضرباً من العبث: كيف تصطلح الخمر إذا صارت خلا؟ كيف يحيي العضو إذا تغنفر (أي أصابته الميتوتة)؟ كيف يرجع الحديد إذا صار صدأ ؟

- إن الخمر تصطلح باقتلاع الاستحالة الخالية منها بواسطة شيء من القلويات، ويحيا العضو المتغنفر بإرسال المنبهات والمنقيات إليه كأملاح النوشادر والكلس، ويرجع الحديد بتصعيد العنصر الهوائي منه.

وبينما كان الفيلسوف يجاوب القائد كيماوياً، لمع من بعد جمهور يتسرب إلى جهة المحفل النوراني، وهو يتشكل بكتلته ويسرع تارة ويبطؤ أخرى حسب أهواء عوارض الشجر. وكان يأتي منه صوت كصليل الحديد ولم يزل يقرب حتى نفذ في المسرح الملوكي واستقبل بوجوهه طفحات الأشعة حيثما توقف عن التقرب. وعندما أجلت فيه طرفي وجدته مركباً من تسعة أشخاص مقيدين من أرجلهم بسلسلة حديدية يجرها زنجيان من هنا ومن هنا، وكان وراؤها أناس لم أعلم ما شأنهم. ونظرت رجلاً يتقدم الجميع وهو يعجل بخطواته كمن هو سائر بمهمة.

ثم رأيت هذا المتقدم قد انفرد عن الجمهور وسار يطلب جهة العرشين، وإذ وصل سجد على ركبتيه خطفاً. ثم نهضوا واحني هامته بوقار ويداه

ممددتان على جنبيه. فأمعنت النظر فيه وإذا هو وزير محبة السلام، وإذ رآه الملك قال له: هؤلاء جمهور المردة، فأمال الوزير رأسه وأجاب بصوت المنتصر: نعم.

- حل وثاقهم واجعلهم أمامي صفاً. فنكص الوزير إلى الوراء ثم التفت للزنجيين وأشار إليهما بحل الوثائق ففعلاً وبينما كان الصف يتركب والأشخاص اللاحقون يبعدون إلى الخلف انحدر القائد والفيلسوف وجلسا حذاء عرش الملكة.

- 6 -
قـــــواد الشـــــر

أما أنا فرأيت المحل الذي أشغله لم يعد مناسباً لأنظرا وأسمع كل شيء، لكون نظري ما عاد يحيط بكل ما أمامه من الأشباح، وأذناي صارتا تعجزان عن إيفاء حق السمع لما أستجد من الضوضاء، فتركت هذا المحل وأطلقت خطوات التجسس حتى بلغت الجمهور المحتفل وانخرطت في سلك الأشخاص اللاحقين من حيث لم يشعروا بقدومي.

فرأيت الأسرى المصفدين في الأغلال قد وقفوا صفاً منتظماً إزاء العرشين. والقائد والفيلسوف لم يزالا جالسين حذاء الملكة يخاطبانها بحديث لم أسمعه. ووزير محبة السلام واقفاً بقرب العرش الملوكي وتلوح على وجهه عبوسة التفكر العميق. وكان الملك يرسل نظراته لفحص الجمهور ووجهه مغشى بسحب الغضب. وما ساد السكوت برهة حتى التفتت الملكة إلى الملك وقالت له بصوت لطيف.

- قد استصوب الفيلسوف والقائد ما تناجينا به هنيهة في كيفية محاكمة هؤلاء الأسرى.
- فليذهب القائد إذا وليحضر الأشخاص الذين عيناهم إلى هذا المكان. فما أتم الملك كلامه إلا ورأيت القائد قد وثب وثوب الجواد وطلب موقف الأجناد.

وإذا أسدل السكوت ستاره ونشر الهدر شراعه.أخذت أحدق طرفي بأولئك الأسرى، وأنتقد كلا منهم وأنا بين الارتياع والتعجب. ووقعت في بحران التكذيب والتصديق.

فكان الشخص الذي هو مقدام الجوق رجلاً حليف الشيخوخة قد امتصت الأيام ماء وجهه المصفوع بكفي الزجر والانتقام، وحرثت السنون سهلة جبينه، وندف الزمان على لحيته قطن الشيب، وعاد لا يقوى على نصب قامته من ثقل الحوادث المتراكمة على ظهره. وكأن حرارة أعضائه قد تجمعت في حدقتيه اللتين كانتا تنثران شرراً ودخاناً. أما رأسه فكان متوجاً بإكليل عتيق الزي قد نحره صدأ القدمية، ورأيت على صدره لوحاً فيه: (هذا ملك العبودية).

أما الشخص الأول بعد ذاك المقدام فكان رجلاً ضخم الجثة، غليظ العنق مفرطح الرأس والجبهة، أفطس الأنف نحيل الشعر غليظ الشفتين. وكانت أرواح التبسم البهيمي تتراقص على وجهه، وضباب الجمود الحيواني مخيمة على عينيه، ورأيت على صدره لوحاً فيه: (هذا قائد الجهل).

أما الشخص الثاني فمع أن منظره جميل، إلا أنه ما كان يخلو من جملة أطوار لا تلذ الناظر. فقد كانت سعة جبينه مضنوكة بغضون العبوسة. وبياضه مشوباً بظلمة الشكاسة. وكان أنفه الأقنى مرتفعاً ومحسوراً يشير إلى ما في نفسه من الغطرسة. وحواجبه المقرونة مزورة ازورار غضب وسخط. وكانت عيناه السوداوان مبرقعتين بنظر المحتقر والمستصغر، وفمه الأقاحي كان يفتر بابتسام العجب والتيه، وعلى صدره لوح مكتوب فيه: (هذا قائد الكبرياء).

يا قاتل الله الجمال فإنه ما زال يصحب باخلاً متكبراً

أما الشخص الثالث فقد كان رجلاً تعجز عن تشخيص أمارات وجهه دقائق الفراسة. فعيناه الزرقاوان كانتا دائمتي التحديق حتى إنهما إذا نظرتا إلى

شيء فكأنها تكادان تطيران إليه. وكان وجهه العابس يبدو كأنه مصاب الاستقساء لما فيه من انتفاخ الرياء. وكانت جوارح بلبال التفكر حائمة على جوانحه، وهمهمة بكاء الطفل ما كانت تبارح شفتيه. هذا عدا أهبة الهجوم التي لم تكن مفارقة عموم هيئته الضخمة وعلى صدره لوح فيه: (هذا قائد الحسد والطمع).

أما الشخص الرابع فقد كان رجلاً كهلاً وعلى رأسه عمامة قد مزقتها مخالب الأدهار، وغيرت ألوانها صباغات الأقذار. وعلى بدنه ثوب أذكرت نسيجه جميع الأقمشة لما أودعت فيه الأوساخ من المزركشة، فإنه شبعان من الدسم وريان من الوخم. ويعلو ا هذا الثوب وشاح قد توشح بالغثة، ونهشت أقطاره أنياب العثة. فلا يحصى إلا مع الأحلاس، ولا يعتبر إلا اعتبار الأدران والأدناس، أما وجه هذا الرجل فقد كان بيضوياً ومشهده رضياً، ونظره لا يفتر وفقاً على ما يلائمه، وقوف شحيح ضاع في التراب خاتمه. ويداه كانتا منقبضتين كأنهما تقبضان على ذهب ولجين. وهما مموهتان بالأوزار، ومطليتان بالأقذار، وعلى صدره لوح فيه: (هذا قائد البخل).

رأى الصيف مكتوباً على باب داره فصفحه ضيفاً فقام إلى السيف

فقلنا له خيراً فظن بأننا نقول له خبزاً فمات من الخوف

أما الشخص الخامس، فقد كان رجلاً ذا طلعة صفراء، وحلة سوداء، وأسنان مكزوزة، وأصداغ مهموزة. وكانت جبهته تسبح بالكدر وأعينه تنثر الشرر، وكأنه مشمول بهم عظيم، ومأخوذ بنعم أليم، وعلى صدره لوح فيه: (هذا قائد الضغينة).

أما الشخص السادس، فقد كان إنساناً صغير الرأس متطاوله، كبير الفم فاغره، ظاهر الشدق قصير القامة. وكان على صدره لوح مكتوب فيه: (هذا قائد النميمة).

أما الشخص السابع، فقد كان رجلاً ذا أعين صغيرة التناسب كروية الشكل مضغوطة القزحية، متجاوزة حد البروز. وذا وجه متطاول مبطن ببشرة كثيفة مدلهمة، يعلوه أنف كالهرم المنبسط. ذو جناح منفرجة، وقمة كقطعة جامود، وعلى صدره لوح مكتوب فيه: (هذا قائد الكذب والنفاق).

أما الرجل الثامن، فقد كان حامل لواء الخيانة حسبما هو في لوحه مسطور، وكانت ملامحة – والعياذ بالله – ملامح الخائنين.

وكل من هؤلاء الأشخاص، كان متردياً بزي خاص. فهذا سابح في ثياب عريضة. وذا محشور في ضيقة الملبوس. وذلك يعرج على الركبتين وهلم جرا حتى إني لم أشاهد شبها بين الواحد والآخر.

ثم بعد هجعة من الوقت رأيت القائد مقبلاً وثمانية أشخاص يهرعون وراءه. ولم يزلوا حتى انتصبوا أمام العرشين، وخروا ساجدين لدى العظمة الملوكانية، حيثما فصلوا بين المحفلين. وغب فترة ألقى الملك عينيه على القائد وقال له:

- أهؤلاء عن المعينون؟؟

- نعم، وأحنى رأسه فأحنى الجميع رؤوسهم.

- دع كلا منهم ينتصب أمام خصمه للشروع بالمحاكمة.

فأوعز القائد إلى المعنيين بما أمر الملك فذهب كل ووقف حيث الإشارة.

أقول: وإذا أثبت نظري على هذا السرب الجديد، رأيت كلا مكللا بالغار، واسمه مرسوما على جبهته بأحرف من نار، فكان الأول يسمى العلم، والثاني الاتضاع، والثالث الرضاء والقناعة، والرابع الكرم، والخامس الصفح، والسادس الكتمان، والسابع الصدق والحق، والثامن الأمن. وجميعهم كانوا يرتدون زياً واحداً.

فما لبث السكوت فترة حتى صرخت الملكة بصوت عال **قائلة:**

- تعال يا أيها الفيلسوف.

فنهض الفيلسوف إليها ومثل لديها **وقال:**

- مرى العبد.

- اصعد على قمة هذه الصخرة وأشرع بالخطاب علناً وليرن صوتك في جميع المسرح.

ثم أمالت الملكة وجهها وقالت: ألما أنت يا قائد جيش التمدن فتمنطق بسلاح العدل، واذهب فقف على رأس ملك العبودية وتقوى ولا تجزع.

- 7 -
المحـــاكمـــة

ففعل القائد حسب الأمر وأسرع الفيلسوف وصعد على قمة الصخرة ووجه خطابه إلى ملك العبودية وأنشأ يقول: أصغي أيتها العبودية لكلمات فمي وأنصتوا يا جميع قواد الشر. هو ذاك ملك التمدن قد انتصب على عرش جلاله، فلتخفض دولة التوحش أعلامها. وها ملكة الحكمة قد ابتدأت تتكلم، فلتخرس أفواه الجهالة. أين شوكتكم يا مستعبدي البشر؟ وأسنة الحرية لمعت في الآفاق. أين صولتكم يا عالمي الظلم؟ وألوية العدل خفقت في الأعالي. زولوا من الوجود فقد دهمتكم الغلبة. حولوا فقد أخذتكم الرعدة. ها قد هبت بكم عواصف القضاء المبرم إلى غابة الحق حيثما تصدح بلابل العدل وترقص أغصان الأمان تحت سماء التمدن العظيم، فلا عاد لسيوفكم رقاب تذل ولا لنبالكم مرامي وأغراض بين البشر.

العـــــبوديـــة

فاعلم يا ملك العبودية أن جميع شرائعك وأحكامك التي كنت توسوس بها في صدور الناس قد سقطت الآن مبانيها، ودثرت أصولها، ولم يبق لها أثر في جميع العالم، وكل ملوك الأرض قد نهضوا لدك معالمها. ولكن لم يزل بعض الناس إلى الآن متمسكين ببقية خبيثة من نواميسك التي قد نشرتها بينهم منذ قام هذا العمران، وما هي إلا استعباد الأقوياء للضعفاء من بني البشر.

فمن المعلوم لدى العموم أن الطبيعة البشرية قد خلقت في كمال الحرية الأدبية، وأن خالقها ذاته عز وجل قد مدحها هذه النعمة الجليلة عندما ما أطلق لها عنان الاختيار بين الماء والنار، واضعاً فيها معرفة الخير والشر، ومبدعاً في سجيتها حركة الميل إلى هذا والصدود عن ذاك.

فمن أين يصوغ لبني هذه الحرية الإنسانية أن يبيحوا تمزيق جلبابها بأنياب الأغراض؟ وكيف قد أمكن للإنسان منذ القديم أن يستحسن هذه الذلة القبيحة لدى الخالق والمخلوقات؟ وأن يسلك بشأنها رغماً عن كراهية نفس غريزته لهذا السلوك، لأنه إذا دخل كل من الناس إلى مخدع ضميره إنما يرى ذاته نافراً كل النفار عن ارتباطه بعبودية غيره، ومتوجعاً كل التوجع لمن دفعته الأقدار إلى فخاخ هذه العبودية الأدبية الخاصة، زيادة على تلك الطبيعة العامة السابق ذكرها.

وليس الإنسان فقط ينفر طبعاً عن هذه الجائحة السوداء بل وأكثر الحيوانات أيضاً، على أنه متى عارض أمياها مانع ما ظهرت عليها حالاً دلائل الانزعاج، وأشارت الرغبة في الدفاع عن حريتها المدافعة. فلا يبرح الأسد الواقع في قفص الأسد يزأر ويضج حنيناً إلى الغاب والعرين. ولا يزال النمر الموثوق بالسلاسل يصرخ ويعج رغبة في الوثوب إلى أعالي الجبال. ولا يفتر الكلب يهر وينبح طالما يكون مسجوناً. ولا ينفك الطائر السجين يخفق بجناحيه ويصيح شوقاً للطيران إلى رؤوس الشجرة وهلم جرا.

فإذا كان الحيوان العديم النطق لا يحتمل مضض الرق وذله، ولا يصبر على ضنك الاستعباد. فكم يكون الإنسان الناطق خليقاً بعدم احتمال هذه النازلة عندما يقع في شراكها؟ وكم يتمنى لو أتيح له التخلص من هولها؟ وكم يكون خشناً بربرياً من يهم إلى باعة الأسرى وتجار الرقيق ليتعاطى بيع أو شراء أشباهه في الطبيعة وعدلائه في الإنسانية؟ وكيف يمكن الإنسان الطبيعي أن يشاهد إنساناً نظيره مغلولاً بقيود التعبد والأسر ولا يجم غضباً ويؤخذ

بخواطر الشفقة والحنان؟ ولا سيما إذ يرى ذلك العبد الموجوع القلب والمنكسر الخاطر مرتعداً إزاء مولاه الأليم القاسي كالفريسة بين مخالب الوحش الضاري. وربما أفضت قساوة ذلك المولى إلى ربط هذا المخلوق بالحبال وجلده بالسياط تحت مواقع العنف الشديد بدون أدنى رفق أو خشية آثام، أيان دعا الداعي وكيفما كانت الحالة، حتى إن هذا المسكين يعود صارخاً ولا من يجيب، ومستجيراً ولا من يجير، ومستغيثاً ولا من يغيث.

فهل يوجد قلب بشري حساس لا يلعن عادة اتخاذ العبيد بين الناس؟ حينما يعاين إنساناً يحوي كل الأخلاق الإنسانية متخذا له أسياد من جنسه، ومقدماً كل حياته ضحية في هياكل أوامرهم الظالمة حيثما لا يجازي سوى بالضرب والشتم واللعنات، فلا يأكل خبزه الدنيء إلا بالتنهد والحسرات، ولا يشرب ماءه العكر إل بالدموع والعبرات، ولا ينام على فراشه الحجري إلا قلقاً بالأوجاع والأوصاب. وربما لا تكاد أهداب أجفانه ترجف بمرور نسيم النعاس إلا يهب من مضجعه هبوب العاصفة، إذ يتخيل رنين صوت في أذنه أو هفيف وسواس، ظاناً أن سيده المتغطرس القاسي القلب يعدوه لقضاء حاجة، أو سيدته المتكبرة الخشنة أتت تنبهه ليأتي فيغيرها رفائد الولد أو يلبيه عنها إذا كان باكياً لكي يمكنها من استيفاء لذة النوم.

وهكذا فلا يعطس أنف الصباح أو يسيل مخاط الشيطان إلا على يقظته، فهات أعرب لنا يا أيها السيد عن الامتياز الطبيعي الحاصل بينك وبين عبدكم البائس، وقل لنا ما هو الفرق بينكما من حيث الشعور والإحساس. أخبرنا، هل تظن أن جلده الأسود لا يشعر بالفواعل المؤلمة عليه كنفس جلدك الأبيض؟ وهل تزعم أن شفاهه الغلاظ لا ترتاح إلى مناولة الأطعمة اللذيذة

كعين شفاهك الرقاق؟ وهل تخال أن عينيه المستديرين لا تشتاقان إلى التمتع بطيب الكرى كعينيك المستطيلتين؟ وهل تفترض أن أنفه الأفطس لا يحث بالمشمومات الزكية نظير أنفك الأقنى؟ وبالإجمال نقول هل تتوهم أو وجوده في بيتك تحت سلطان دراهمك التي بها اشتريته يجعله غريباً عن جنسك وبعيداً عن نوعك وذا حواس لا تشاكل حواسك؟ حاشا وكلا. إن جميع أعضاء هذا الأسير وطبيعته هي نظير أعضائك وطبيعتك، ولا يوجد بينكما أدنى اختلاف سوى بجلده الأسود الذي ربما يكون زاهياً ببياض الأفعال، وبجلدك الأبيض الذي ربما يكون مدنساً بسواد الأعمال.

فمن أين أبيح لك شراء الإنسان وعذابه وقهره يا أيها الظالم الغشوم، وكيف تمكنك الطبيعة الإنسانية من مجاوزة حدودها وشرائعها بأفعال شريرة كهذه؟ ألم تتحرك في باطنك جوارح الشفقة عندما يكون هذا الغريب المسكين واقفاً بين يديك القاسيتين مرتعداً مذعوراً وعيناه مغرورقتان بالدموع، ويداه مبسوطتان لديك بكل ذل وهوان عسى ينال منك العفو أو الرأفة على ذنب ربما يكون حسنة.

أطلق هذا العبد الغريب، فلا يصوغ لك استعباد الجنس البشري. أطلق هذا العبد الغريب، فلا عاد يحتمل أثقال تهافتك ومضض خدمتك. أطلق هذا العبد الغريب، فقد بح حلقه من الصراخ وذبلت عيناه مما يترجى. أطلق هذا العبد الغريب فقد انتثر لحمه من مقارعك وتلاشت قواه من أحمالك. أطلق هذا العبد الغريب، فقد أجمعت على إطلاقه كل ممالك العالم، وها رائحة بارود أمريكا منتشرة إلى الآن في آفاق المسكونة مما أثاروا من الحروب ضد مستعبدي

البشر. أطلق هذا العبد الغريب، أو يطلق ذاته رغماً عنك آخذا الإسعاف من جميع الناس، ومساعدا من نفس الحكومة المدنية بعد أن يتقاضى منك أجرة المثل، أطلق هذا العبد الغريب، ولا تقل: إن وجوده عندي خير له وماذا يعمل خارجاً؟ لأن الله يدبره وحسبه امتلاك بغيته الطبيعية وهي الحرية، أو خذه مستأجراً وارفع عنه ثقل سلطانك. أطلقه أطلقه، فلا عاد يمكنك استعباد الإنسان. وسوف ترى أن نفس حضرة قيل مصر سيبرز أمراً بإبطال اقتناص العبيد من أعمال أفريقيا، وسيلاشى هذه العادة المذمومة من بلاده حسبما يقتضي اجتهاده بإدخال التمدن إلى بلاده وتمهيد سبل الحرية فيها، مقتدياً بولي نعمته جلالة السلطان العثماني الأعظم ذو الشوكة والاقتدار عبد العزيز خان، دام ملكه مدى الدوران.

وإذ كان الفيلسوف مسترسلاً في كلامه، كان الذين ورائي يعوجون ويموجون بين الطرب والكرب، ضاجين بأصوات مختلفة بين السلب والإيجاب. فكان هذا يقول: نعم إن العبودية لا تحتمل ولا يوجد أصعب على الطبع البشري منها ولا أشنع من عادة اتخاذ العبيد. وذا يقول: لا لا ليس الأمر كذلك لأن الله قد خلق مولى وخلق عبداً إذ جعل إناء للكرامة وإناء للإهانة، والكتاب نفسه قد أمر بطاعة العبد لمولاه وصرح بدعوى هذا ودعوى ذلك. فعلى أي أساس نبني بطلان العادة الآخذة مبدأها من سالف الحقب؟ وذاك يقول: بكل حق يجب نسخ هذه العادة الخشنة التي ينفر منها الطبع الإنساني، ولا يجوز التعبد سوى لله، هو قال: (للرب إلهك تسجد وله وحده تعبد)، وما ورد من ذكر عبد أو أمة في الكتاب يمكن تحويله إلى الخادم أو السرية تحويلاً يتضمن الانتماء البسيط من الفقير الباذل تعبه بحريته، إلى الغنى الدافع فضته

بإرادته منتخباً هذا وراذلاً ذاك. وذلك يقول: ان هذا الكلام هذيان، كيف نترك عبيدنا الذين قد اشتريناهم بالذهب والفضة، وتكلفنا عليهم كذا وكذا من مال وأكل وشرب وكسوة؟ اسمعوا يا ناس هل يطيق هذا الفشار القبيح؟ ويقول الآخر: ليس الهاذي سوى من ينزل الإنسان منزلة البهيمة بالبيع والشراء والعلف، زاعماً أن الزنجي أو المملوك الكرجي هو حمار ناطق ولا يوجد فيه أدنى إحساس إنساني، ما شاء الله على هذه النتائج الذهنية!!!

وبينما كان هؤلاء المتعصبون الأنانيون في ضجيجهم وصخبهم، وإذا إيماء وزير محبة السلام يستوقف خطاب الفيلسوف المنتصب على الصخرة كأرز لبنان، وكان يقول للزنجي الواحد هكذا: اشرح يا ياقوت هنا علينا ما رويته لي خفية، فتردد العبد خجلاً ومهابة، فأعيد عليه الأمر فتقدم حينئذ هذا العبد الأسود قليلاً وأحنى رأسه أمام المظهر المملوكي ثم نكص إلى الوراء والتفت إلى الحاضرين وافتتح كلامه بصوت منخفض يصعب إسماعه. فناداه الوزير قائلاً: أجهر صوتك، فجعل العبد يقص بكلام جهوري قصته فقال:

- إنه منذ خمس عشرة سنة بينما كنا ذات يوم أنا وأخي هذا مرجان (وأومأ إلى زنجي آخر كان بجانبه) نسرح مع والدتنا في برية السودان على نحو غلوة من قريتنا، وكان سني وقتئذ لم يتجاوز العشر وسنه لم يبلغ الثماني، وإذا بقافلة من فلاحي مصر نظرناها تخب في القفر بين الأمواج الرملية المستعمرة بإيقاد الهجير، آخذة طريق جبال القمر حسبما يتوهم انبعاث النيل. فعندما نظر إلينا بعض الركاب أخذوا يعرضون علينا عن بعد قطع كانت تلمع بأشعة الشمس مظهرين قصد إهدائها لنا، فهرعنا

إليهم حالاً رغماً عن ممانعة والدتنا وقتئذ التي حدثتها نفسها ولا شك بخطر هؤلاء علينا، وإذا دنونا منهم أملاً في الهدية قبضوا علينا سريعاً وأردفونا على الإبل، وأطلقوا لها السراح ضاربين في أودية الرمال، فطفقنا نتباكى ونتصايح باسطين أيدينا إلى والدتنا التي كانت تولول وتنوح عن بعد بحنين يجرح الفؤاد، وكانت تنسف الرمل على رأسها وهي تركض لتدركنا زاعمة إمكان إنقاذنا، أما نحن فكنا نزيد بالعويل ونبالغ باستنجادها كلما كانت تقترب منا، ولم تزل هذه المسكينة تجهد خطواتها حتى أدركت محملنا، فأخذت تترامى على أقدام مقتنصينا سافحة دموعها السخينة وتتململ وتترجي، بلغتنا التي لا يفهمونها، عفوهم عنا صارخة بصوت يحرك الجلمود: استحلفكم بما تعبدونه ردوا على الولدين كرما لرب النيل، أعطوني والولدين ولا تتركوني أموت بفراقهما كماد، ردوا على ثمرة أحشائي وأنا أعطيكم كل ما أملكه من الخرز والقزاز.أما مقتنصونا فكانوا يزدادون قساوة كلما ازدادنا بكاء وازدادت والدتنا أنتحاباً وململة، فكانوا يضربوننا ويزجرونها ويلطمونها في صدرها ويرفسونها بأرجلهم ويلقونها على الأرض، وهي لم تزل تندب وتذرف العبرات وتتوسل وتتضرع بيديها وبكل إشارات وجهها، وهم لا يزالون يلطمونها ويصرعونها حتى غشى عليها وانطرحت على وجهها معفرة وكأن لم يعد بها نفس. وما كادوا يبعدون عنها قليلاً حتى أنعشتها أرواح الحنية وضوضاء عويلنا، فوثبت على قدميها منهوكة القوى وأسرعت إلينا ثانية، فإذا رآها قانصونا الظالمون تتبعهم عادوا إلى ضربها، ومد أحدهم على هذه الأم المنكسرة القلب

بندقيته وأطلق الرصاص على أحشائها، فسقطت على البساط المقفر، وتلوت قليلاً بتنهدات متقطعة، وسلمت الروح متكفنة بالرمال.

وعندما رأينا ما حل بأمنا التعسة من الويل تملكتنا الرهبة ووقعنا في هوة اليأس من الخلاص، فصمتنا آخذين بالصبر الذي هو سند المصابين بالمحن. وأخذت الأباطح تسيل بأعناق المطايا التي كانت حاملة كثيرين من بني جنسي المقنوصين. ولم نزل نفري بطون السباسب والقفار حتى بلغنا الرستاق المصري. أما أنا فلم أعلم ذاتي بعد إلا ممسوكاً بيد أحد النخاسين تجار العبيد ومنادي على بيعي في سوق القاهرة، فاشتراني رجل من الأغنياء وأدخلني في داره للخدمة. أما أخي فما كنت عالماً ما كان من أمره، فجعل هذا الرجل يعاملني بأقسى المعاملات وأخذت أطيعه الطاعة العمياء. ولكن لسوء حظي لم تكن طاعتي موجبة لراحتي، لأنني كلما كنت أزداد نشاطاً وهمة في خدمته كان يزداد صرامة وقساوة، حتى إنه مراراً عديدة كان يربطني بالحبال ويجلدني بالصوت لأقل سبب نظير عدم طيراني كالباشق حالما يدعوني، أو عدم إجرائي – كالواجب – ما يكون في ضميره. وطالما كان يقول لي (أما تعلم إرادتي، أما فهمت مزاجي). هذا وقد كنت في سن لا يسمح لي يعلم الضمائر الخاص بالله، ولا بفهم الأمزجة المنوط بالأطباء. ولم أزل صابراً على هذا العذاب الأليم ومقاسياً صعوبات هذا المولى الظالم حتى بلغت الثمانية عشر عاماً، إذا خرجت من عبوديته. وكان سبب خروجي أنه في ذات ليلة أرسلني لاستدعاء أحد جلسائه إليه، فخرجت مسرعاً لقضاء أمره وكنت في أثناء طريقي أرفع نظري إلى الجو لأستعلم ابتداء هبوط الأمطار، لأن السماء كانت في تلك الليلة

موشحة بالغيوم الكثيفة، ومدلهمة على شكل مربع جداً، وكانت البروق تتلوى تلوي الحية الرقطاء، وتنشب من سحابة إلى أخرى مخترقة أعماق الفلك.

فما بلغت نصف الطريق حتى انفتحت ميازيب السماء، وانحل وكاء السحاب، وابتدأ يهبط برد عظيم نظير الحجارة بحيث عدت أظن أن السماء شرعت ترجم الأرض بحممها، أو الضربة السابعة من ضربات سيدنا موسى نهضت من كمين العدم. وكانت أصوات الرعود تزلزل أساسات المسكونة، وهبوب الرياح ينسف الجبال نسفاً. فأخذتني الدهشة والرعشة مما لم تتعوده عيناي في تلك الديار لندرة حدوثه، فما كنت أشك حينئذ في أن الخليقة جميعها تموج هلعاً، ولما لا يعد يمكنني المسير خوفاً من سحق حجارة البرد لرأسي وتهشيمها عظامي، تواريت في إحدى الزوايا وصرت من جملة الخبايا.

وعندما انفطر كيد الغادية، وأسفر البدر عن الأضواء لدى ساعة من هيجان الطبيعة، أطلقت أقدامي إلى تتميم الرسالة، فلم أزر الرجل في بيته، فرجعت إلى سيدي وأخبرته بذلك، فأزبد وأرغي وأخرنطم وبرطم وحملق عينيه الآتونية، **وقال**:

- لماذا تأخرت إلى هذا الوقت وتركتني أموت خوفاً؟

- لأن البروق والرعود أدركتني في نصف الطريق لذهابي، فخفت واختفيت.

- ولماذا خفت يا خبيث ولم ترتد حالاً إليَّ؟

- لأني خفت على نفسي الهلاك، ومتى عصيتك يا مولاي؟ وكيف أرتد راجعاً بدون تتميم أمرك؟

- إذن أنا لا أقدر أن أهلك وأطحن عظامك أكثر من هاتيك الزوابع، وهل جسدك الذي هو ملكي أفضل من إرادة يا عبد السوء؟ ثم هجم إلى

العصا مكفهر الوجه محمر العينين وهو يردد هذا البيت البربري الذي صاغه المتنبي للكيد بكافور:

لا تشتر العبد إلا والعصا معه إن العبيد لأنجاس مناكيد

ووثب عليَّ كالوحش الضاري، وصار يضربني ضرباً عنيفاً حتى إنه مزق جلدي وكاد ينثر لحمي، وهو يقول لي بصوت أبح: (هربت من غضب الله فابشر بغضبي).

وأخيراً قلت له: اتق الله يا ظالم، أي ذنب جرى مني يستحق كل هذا القصاص؟ فأجابني: أتعنفني يا أسود الوجه اخسأ وأخرس.

ثم ذهب فأتي بمسد عازماً على ربطي وتجديد الضرب. فلما رأيت حياتي وقعت في الخطر رفعت مهابته من قلبي، وهجمت عليه غائباً عن الرشد والحس وواقعاً في اليأس فمسكت يديه بقبضتي ودفعته إلى الحائط دفعاً شديداً ورفست بطنه برجلي حتى كدت اخترط أمعاءه، وقلت له: أقتلك أو نطلق سبيلي يا أسود الطبع. ولما أخذ يعاركني وهو في غلو الهيجان وإغراق الافتتان، تناولت الحبل المعد لي وشددت به يديه ورجليه وألقيته موثوقاً بدون حراك. وإذا نظرت ذلك امرأته وأولاده أخذوا يصيحون ويضجون ليجمعوا الجيران، ففتحت الباب وطلبت الفرار وأبقيتهم في طغيانهم يعمهون.

وما زلت أركض هائماً على وجهي حتى بلغت سكرة فدخلتها، وطلبت حجرة للنوم فأجيب طلبي، فتوغلت في هذه الحجرة وأغلقت الباب، ثم انطرحت على الفراش كالقتيل ولم يكن ما يستنار به سوى سراج طفيف.وبما أن أوجاعي وأفكاري كانت في غاية الثوران، لم تكتحل أجفاني بأثمد الغمض،

ولم تذق عظامي طعم الراحة. وفيما كنت أنظر إلى النور الضئيل المنبعث من السراج الذي كان موضوعاً نصب عيني وأنا مشمول بشمول الخوف، صار نور السراج يتراقص كفرائصي ويخفق كقلبي، وما لبث أن أسلم روحه فانطفأ. فاختطفتني موجة الظلام، وابتلعني غمر الدجى، وأطبقت الوساوس على فاها، وما عدت أرى سوى الموت، ولا أسمع صوت صفير الرياح المتلاطمة بين الأبنية. فصارت هوام الأوهام تتطاير في حرش مخيلتي تطاير الشرر المنتشر.

ولما تمكن من ذهني خاطر الدخول إلى المدرسة، بناء على أن كلا يعمل على شاكلته. تركت مركبنا وركبت سفينة تجارية وقصدت الأستانة العليا دار السلام فوصلت إليها، وبعد قليل من وصولي طلبت الدخول في المدرسة العسكرية ففتحت لي الأحضان وشرعت بالدراسة ناسياً كل ما جرى على رأسي.

وبينما كنت ذات يوم أتمشى على جسر غلطة وقت الراحة، وإذا عبد نظيري **يقول لي:**

- نهارك سعيد همشري.
- نهارك سعيد مبارك.

وبعد أن تأملته بإمعان أشعرت بشرارة كهربائية طارت من دمي وسرت في **جميع مفاصلي فسألته:**

- ما الاسم؟
- مرجان. فازددت حناناً إلى محدثي، **وقلت:**
- وكيف كان مجيئك من بلادنا؟
- بقوة الاختطاف.

- وكيف كانت طريقة هذا الاختطاف؟ وهل خطفوك وحدك أم خطفوا غيرك معك؟

- خطفوا معي أخي أيضاً لأنني كنت أنا وإياه نتمشى في البرية، وإذا جماعة من المصريين دنوا منا وخطفونا وقتلوا والدتنا لأنها تبعتهم لإنقاذنا من أيديهم. فما عاد عندي أقل ريبة في أن هذا العبد هو أخي ذاته. وحينئذ غرغرت عيناي بدموع الفرح وخفق قلبي بأجنحة الشوق والحنان، ولكنني اجتهدت بإظهار الجلد لا ستتم التأكيد **فسألته**:

- وما اسم أخيك؟

- ياقوت، وهو أكبر مني.

فقبضت على يده وقلت له اتبعني لأريك أخيك. فأخذته إلى حجرتي على انفراد وقلت له: أنا هو أخوك ياقوت. فتعانقنا وتباكينا ساعة حتى أطفأنا بمياه المآق نار الأشواق. ثم قصصت عليه جميع ما جرى لي من الأول إلى الآخر. وبعدئذ طلبت منه أن يروي لي ما جرى له، وكيفية وصوله إلى الأستانة. فقال:

- إن تاجر العبيد في القاهرة باعني إلى رجل إسكندراني، فذهب بي إلى الإسكندرية وجعل يستخدمني في وعادت غربان الوساس تحوم على خربة رأسي من كل جهة، حتى صرت أخال نفسي قائماً في وسط جهنم.

ولم أبرح متقلباً على فراش القلق والأرق، ضارباً لفي أودية الويل، خابطاً في لجج الليل، إلى أن تبلجت كوة الحجرة بشعاع السحر، إذ علمت أن النجم قد غار على جواده الأدهم والصبح قد أقبل على صهوة حصانه الأشقر فقفزت

من مضجعي قفز الغزال المذعور، ووقفت في وسط المخدع لأجمع شوارد أفكاري، وأنتخب منها ما يرشدني إلى سواء السبيل. وإذ أولجت يدي في جيبي على غير قصد إيفاء لما تطلبه بديهة الهجس، عثرت على بعض قطع من الدراهم كانت مذخورة لمصروف بيت مولاي، فشملني الفرح للحال، وقلت في نفسي: ها قد استلمت طرف زمام المستقبل. ففتحت الباب المغلق وأطلقت لنفسي عنان المسير. وإذ بلغت باب الدسكرة وجدت صاحبها مدلجا هناك، فطلب مني أجرة المعرس. فأعطيته شيئاً من الدراهم وواصلت الجرى حتى أصبت بالجسر. فما لبثت برهة أنتقد ذاتي، حتى رأيت ذهبية قاصدة الإسكندرية، فانخرطت بها وأخذت تفرط زيد الماء لدى مهب الهواء في ماء النيل العذب.

وبعد ثلاثة أيام بلغنا الإسكندرية، فصعدت إلى البر وطلبت جانباً المينا فصر ت هناك عتالاً. وغب كرور خمسة أشهر خلعت أبهة العتالة وصرت ملاحاً في أحد المراكب العربية التي تمخر في بحر الروم، ولكن بعد بضعة أشهر خطر لي أن أترك الملاحة وأدخل إحدى المدارس التركية، وما ذاك إلا إنني صرت أسمع شتيمة الجنس العربي واحتقاره من جميع الإفرنج الذين كانت مراكبهم تصادف مركبنا في عرض البحر، وقالوا إن أولادهم يظنون أن العرب هم نوع منقطع عن الجنس البشري ولا يحسب إلا من جملة الحيوانات، الأمر الذي ينتج عن كثرة استماعهم عبارات الازدراء والتحقير من آبائهم لأمة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم.

فقلت في نفسي أن الجهل الفاشي في الأمة العربية هو الذي أوجب انحطاط شأنها لدى الأمم الأوروبية، ولو كان للعرب مدارس نظير ما للإفرنج، ومساعدون على تقديم العلم، ومحبة وطنية منزهة عن أغراض الدين، لما أصبح

العرب أضحوكة عندهم، بل ربما صار العرب أرقى من جميع الأمم علماً، لشدة حذفهم الطبيعي وحزمهم، ولا ينكر الغرب فضل العرب عليه. بيته وأنا صغير لا أعرف شيئاً سوى اللعب مع الأولاد. ولما بلغت أشدي باعني إلى أحد الأتراك. فأخذني هذا الرجل وسافر بي إلى إسلامبول وأبقاني عنده مدة سنة. ثم باعني إلى رجل من كبار هذه المدينة، وها أنا منذ سبع سنين في خدمته.

- وكيف معاملته لك؟

- بغاية الرقة واللطافة حسبما تقتضي طبيعة أهالي الأستانة. ولكن مع ذلك أرغب جداً في العتق لأن الفكر وحده بوجودي عبداً، وبكوني أنا وملك يدي لسيدي، وبأن حياتي وموتي بين شفتيه أو يديه، ومتى شاء باعني ومتى شاء اشتراني، بحيث لا يوجد لي أدنى حرية معتوقة ولا حركة مطلوقة، إنما يجعلني مائلاً كل الميل إلى الحرية والعتق، ولو صرت خادماً بما يسد رمقي عند أحد الرعاع.

- إذن تشتهي العتق.

- نعم من كل قلبي.

- فلماذا لا تطلب من سيدك أن يعتقك؟

- كيف أطلب منه ذلك وهو قد اشتراني بماله لخدمته؟

قال ياقوت: لما سمعت هذا من أخي قهقهت ضاحكاً بملء شدقي، وقلت له: جعلت فداك يا أخي أو لم تعلم حتى الآن أن الحكومة قد أبطلت الاتجار بالرقيق، وما عادت تسمح بمشتري العبيد واستعبادهم، وإنك متى رجعت إليها بادرت إلى تحريرك إن شاء سيدك وإن لم يشأ؟ فاذهب حالاً إلى سيدك واطلب منه أن يعتقك وإن أبي أرجع إلى وأنا المسؤول عن تحريرك.

قال ياقوت: فذهب أخي من عندي وبعد ثلاثة أيام أتاني ومعه ورقة العتق، فأدخلته معي إلى المدرسة. وبعد مرور خمس سنين خرجنا منها، ودخلنا في خدمة دولة خرجنا منها، ودخلنا في خدمة دولة التمدن تحت راية جانب السلطان الأكبر. وها نحن بين أيديكم نرى أخصامنا بأعيننا ووثاقهم بأيدينا، فأعز الله أنصار الحرية وأيد دولة الرفاهية.

وبعد تتميم الزنجي روايته المحزنة التي أثرت على جميع من في المحفل ولفتت كل اهتمامهم، ساد السكون برهة كانت فيه الملكة تمسح عينيها من الدموع التي استقرطتها رواية العبد. ثم التفت وزير محبة السلام إلى الفيلسوف الذي كان مستنداً إلى الصخرة بدون حراك، وأوعز إليه بالإشارة أن يرجع إلى كلامه. فلمس الفيلسوف جبهته المرتفعة بيمناه وأنشد يقول:

هذا ما يجب تبليغه لمسامع ملك العبودية الذي لم يسلك حسب مضمون ما تقرر لديه، فلا قيام لمملكته إزاء تقدم هذا العصر الجديد. فليسمع قواده وأنصاره ما سيرد عليهم أيضاً وليركنوا إلى الحق. ثم التفت إلى قائد الجهل مبتدئاً به، وطفق يقول:

الجهـــــــــل

أما أنت أيها الجهل فمن أقبح الأرواح الشريرة التي تفسد في الأرض تأييداً لملك العبودية، وتخريباً لأبنية العلم. فما أنت إلا السبب الأعظم لأكثر الوبال الذي جرى ويجري وسيجري في المسكونة. والأصل الأول الذي منه قد نشأت فروع البدع والخرافات التي تجعل البشر عبيداً لأهوائهم وأبطالهم، وتحرمهم لذة حرية الحياة. فإذا كانت المسببات تستلزم من الأحكام عليها ما تستلزمه الأسباب مضاعفاً، فكم تكون إذن يا أيها الجهل مستلزماً صرامة الحكم بمقتك

من الناس وتبديدك وكسر شوكتك والنفار عنك، طالما تعتبر كسبب وأصل لتلك الآفاق المحكوم عليها بالمقت والكراهية منذ بدء الخليقة؟ وكم يجب على البشر أن يعتنوا بتهديم مملكتهم أمام العلم الذي حيثما حل حل معه المجد والعظمة والكرامة.

فبالعلم يجلس الإنسان على قمة كماله الطبيعي، ويعمل حسب استحقاق إنسانيته. وبالجهل يهبط إلى أسفل السافلين ويصبح بمصاف سائر الحيوانات. بذاك تعظم قوة الممالك وتصان حدود الملوك، وبهذا تسقط القوات ويمد التعدي باعه. بذلك يقوم اعتبار الشعوب وتنتشر ثروة القبائل، وبهذا يخفق جناح الاحتقار وينعق غراب الفقر والإقلال. بذلك قد تلألأ محيا الغرب، وبهذا قد أظلم جبين الشرق.

فكأن الشرق باب للدجى ما له خوف هجوم الصبح فتح

ومع ذلك لا يجب على التمدن أن يستأصل جميع جذورك من أرضه يا أيها الجهل. على أنه لابد من بعض دخل لك في غوطته استدراكاً لشيوع الدعوى بتمام العلم ما بين غير أهله شيوعاً لا ينكر ضرره. لأن الإنسان المدعى بالمعارف على غير أصل، إنما ينشئ أضراراً جمة إذ يزرع في عقول أصحابه ورفقائه الذين يثقون به قواعد وحقائق كاذبة باطلة، وهم ينقلونها إلى غيرهم إلى أن تشيع وتذيع، وربما صارت أساسات يبني الناس عليها ما يفضى به م إلى الضلال والطغيان، فيعود مقتضياً لنفوذ أنوار الحقائق في أبصار بصائرهم عناء عظيم، ويكون سبب ذلك هذر الجاهل المدعى.

فيجب إذن للتمدن أن يترك يداً لقائد الجهل في دائرته، لكي يوحي إليه بواسطة تغلب العلم أن يلطم أفواه تبعته وبضع أقفالاً عليها، فلا يعودون

يفوهون بما يؤذي، بل يحنون رؤوسهم أمام عظمة العلم ويجتهدون في تلقي الحقائق على قدر الإمكان، ويعرفون أنفسهم أنهم منتسبون إلى الجهل. حتى المتوغلون في بواطن الأشياء أيضاً طالما يلتجئون إلى حكم الجهل، لكثرة ما يرون من المجهولات التي يفوتهم إدراكها. وكلما ازداد الإنسان علماً ومعرفة وجد لحكم الجهل عليه اتساعاً وغلبة، لأن نسبة ما يمكن علمه إلى عالم المجهول هي كنسبة ما يمكن للنظر إحاطته من البحر إلى ساحة المياه جميعها، أو ما يمكن رؤيته من النجوم الظاهرة القليلة إلى بقية الأجرام المختفية الممتنع عددها. فكما أن كروية البحر ورحابة الفلك تقدمان للنظر أمداً وعدداً أكثر كلما ارتفع الناظر وقوى إسطرلابه، إلا أن يحكم في النهاية بعدم إمكانية الإدراك العام لما أمامه فيرجع بصفقة المغبون. هكذا العلم أيضاً، فهو يعرض للدارس حقائق ومبادئ أكثر كلما ازداد توغلاً فيه إلى أن يجزم في النهاية بامتناع الاطلاع المطلق على كل شيء، فيرتد ضارباً أسدريه متخذاً الجهل عذراً له. فعلى كل حال إذاً يجب أن يكون العلم والجهل مترافقين في خدمة مملكة التمدن، ولكن بشرط أن يكون الثاني في كتف الأول مطيعاً له. وهكذا فيكون كل منهما عارفاً بواسطة رفيقه حقيقة حدوده، فيلبث الواحد مجداً في تمهيد مسالك العمار والطلب، ويرجع الثاني عن المعارضة إلى توقيف السير وراء الخراب الناجم عن الدعوى الكاذبة، بحيث يصير هذا مدركاً حده وذاك عارفاً نقصه.

الكـــــبريـــــاء

أما أنت أيها الكبرياء فمن أدهى الأرواح التي تتعب في مرادها الأجسام، ومن أعظم القوات التي تجعل البشر سالكين تحت نير العبودية، لأنك تتركهم عديمي الحرية في تتميم مقاصدهم وواجباتهم. فتعدم كلا منهما قسماً كبيراً مما

يخصه من الحقوق، على الهيأة التي هي أيضاً تفقد أهم حقوقهم على أبنائها بحيث يصير هذا محروماً من التمتع بتمام الألفة والمخالطة وتلك معاقة عما تطلبه من الانتظام والالتئام.

فهل دخلت يا أيها الروح الشرير في أحد إلا وتركته يخبط في لجة البلبال والتعب، وجعلته مرذولاً ومبغوضاً من جميع بني نوعه؟ فحيثما جلس رأي نفسه أرقى من محله وأعز من جلساته، وإذا ألقى سلاماً على أحد أو تكلم معه غيره زعم أنه قد تنازل بذلك تنازلاً عظيماً على ما يتوهم من علو قدره. وإن قضت عليه الحاجة بالسؤال عن أمر يجهله أو الاستفادة من شيء ما من أحد الناس، يقع في حيرة عظيمة واضطراب لا مزيد عليه، ويصير محلاً لتنازع عوامل الطلب والترك، إذ يرى لسانه منبسطاً إلى المطلوب، وقلبه منقبضاً عنه، فتثور في جوانحه نار الإلوهية، ويأخذ بإرسال إشارات ورموز عن مقصده، عسى ينال الجواب والفائدة بدون تصريحه بسؤال رسمي. وإذا أعياه بلوغ المراد، حاول أن يسبك السؤال في قالب قصد التنكير لمعرفة، لا طلب التعريف لنكرة، دفعاً لنسبة الجهل أو الوقوع تحت المنة، واختلاساً للفائدة من غير أن يغض من كبريائه، وإذا أوقعته الصدف بمرافقة أحد إلى الدخول في مكان ما، حاول كل المحاولة أن يتقدم عليه ويبقيه خلفه.

وهكذا لا يزال هذا المتكبر الأحمق معجباً بنفسه عاقداً حواجبه، إذ يظن أن السماء تعنو لديه والأرض تجثو لأقدامه، مع أن يكون بمقتضى هذه الأطوار مبغوضاً وممقوتاً من الجميع، ومنبوذاً من الحياة الاجتماعية التي تأسف عليه، بينما هو أيضاً يندب سوء حظه ويبكي على حياته التعسة المقيدة بسلاسل

العبودية لكبريائه، إذ يرى حاله مقهوراً لطبعه ومحروماً من لذات الخليقة، ومرذولاً من الخلائق. ومداناً من الخالق. فلا يعتبر إلا كورقة الخريف المستعدة للهبوط من أعاليها لدى أقل حركة من الرياح.

فقل لنا يا أيها الروح المتعجرف من أنت؟ وما أنت؟ لنعطيك حقك.

فإن كنت بشراً فما فضلك على البشر؟ وإن كنت ملاكاً فأنت إبليس الاستكبار، إذا لم تسجد لأدم متواضعاً، وإن كنت ملكاً فإنك خادم الناس ما دمت كبيرهم، ولا تنفعك كبرياؤك عليهم، وستحل في قبر النسيان قبل حلولك في قبر الأبدان وقد قال قبلك الملك والنبي داود أن دودة ولست إنساناً. وإن كنت نبياً فما عندك آية سوى الكبرياء، وهذا سيماء الدجال، وإن كنت رسولاً فقد كذبت رسل من قبلك. إن كنت من ذوي الفضل والإحسان فإنهما من الواجبات البشرية، ولا يسمح لك واجبك بالتيه والعجب على غيرك. وإن كنت غنياً فثروتك لنفسك، ولا تنفع بها أحداً ما لم تنفع منه أولاً، على أن الأغنياء والفقراء متبادلون حقوق المعيشة على السواء. وإن كنت حيواناً فأنت واقع تحت قدمي الإنسان، إذ تكون غنمة أو بقرة أو إحدى بهائم البقاع.

ومع ذلك لا ينبغي الرفض المطلق لقائد الكبرياء من مملكة التمدن، حذراً من حصول الدناءة التي لا تليق بالبشر، بل يجب تركه مقيداً بحكم الاتضاع حتى يستوفى كل منهما حقه حسبما يقتضي الحال، فتكون النتيجة حصول عزة النفس المقبولة في شرائع التمدن، وزوال عبودية الاستكبار عن الأنفس.

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر ... على صفحات الماء وهو رفيع

ولا تك كالدخان يرفع نفسه ... إلى طبقات الجو وهو وضيع

الحســـد والطمـــــع

ها قد وصلنا إلى هذا الروح الذي كثر شره وعظم ضره منذ البدء إلى الآن، أعني به قائد الحسد والطمع كعبة الشقاء وركن الفساد. فما أنت يا أيها الروح الشريرة إله بها يفتك الناس بعضهم ببعض، وبها أنشأوا كل حقد وعدوان. فطالما كانت سبباً لسقوط ممالك وزوال ملوك وعظماء. فبك هلك قابيل إذ أوقعته في معصية القتل، وبك هلكت امرأة لوط إذ أطعمتها بسبر غضب الله. وبك طردت هاجر إذ نزلت في قلب سارة. وبكل طلب يعقوب الفرار إذ أثرت سخط العيس. وبك سقط يوسف في البئر وبيع وأسر، إذ فشيت في أرواح أخوته. وبك زهقت روح شاول إذ ملأته حنقاً على داود. وبك تبلبلت دولة المكدونيين، إذ أفرغت فيها سمومك. وبك قتل يوليوس قيصر، إذ دخلت في قلوب أصحابه. وبك وبأفعالك قد رجمت الفلاسفة، ورذلت العلماء، وانخذلت الأئمة.

فكم يجب على البشر أن ينفروا عنك ويبغضوك يا أيها الحسد والطمع؟ لأنك تجتهد على الدوام في إلقاء الحقد والبغض ما بينهم، وفي تفريق شملهم إذ تجعلهم أخصاماً وأعداء لبعضهم أفراداً وإجمالاً.

فمتى دخلت في قلب إنسان جعلته عدواً مبيناً لأنداده ونازعته الراحة والحرية، فإذا كان ملكاً أخذ يضارب الملوك ويشن الغارات عسى ينال المرتبة الأولى على الجميع. وإن كان وزيراً جعل يناكد الوزراء ويشي بهم عند الملك رغبة في الارتقاء عليهم. وإذا كان شريفاً شرع ينم على الأشراف ويستهجنهم إزاء العامة ويقذفهم بكلمات الاحتقار، أملاً منه بأن يعمى عيون الناس عن أن

ترى شريفاً سواه. وإذا كان غنياً تاجراً طفق يسخر بالأغنياء التجار ويشنع بهم ويشيع عنهم أخبار الإفلاس، لكي يزيل اعتبارهم من بين الناس مؤملاً أن ينحط عمود ثقتهم بقوة ذلك التشنيع الإشاعة فيسر فرحاً. وإذا ساقه الحديث أخذ يسدد غناهم إلى عامل الشح والبخل، فيما أنه يكون أشح وأبخل، ولم يزل يتزايد الحسود حسداً حتى إنه ربما لا يعود يستطيع النظر إلى ثوب جديد غير ثوبه أو طعام لذيذ غير طعامه. وإذا كان عالماً أو شاعراً أخذ يزدري بمؤلفات العلماء ويهزأ بقصائد الشعراء باذلاً جهده في إعلان زلاتهم وغلطاتهم، على خطأ كان أو صواب، حتى إذا عصر على شيء من ذلك أخذ بوق الانتقاد وجعل ينشر بصراخه كل أموات الغفلة. وربما أفضى به الحال إلى أن يطرح من يده كل مؤلف أو قصيدة لمن سواه من العلماء والشعراء، ولا يهتم بالقراءة حذراً من أن يرى فكر أجل من فكره، أو علماً لا يعرفه. وبقدر ما يرى من سمو أفكار غيره وجمالها، يكون شعره بثوران لهيب غضبه وهيجان بركان انتقاده.

وهكذا فربما لا يعود في طوق لسانه أن يلفظ سوى الشتائم والمسبات التي أخفها قوله: هذا سخرية ومخرقة وهزيان وركاكة، كل هذا يقوله حسداً بدون إبراز أقل حجة يحتج بها على حجة احتقاره فضائل الغير، هذا إذا لم يطرح قياد العلوم والقرائح في عهدة الجنس أو المذهب.

وقس على ذلك سائر المراتب والصنوف من البشر الذين يأخذهم روح الحسد والطمع، فكم يستفز هذا الروح شروراً وبغضاً بين البشر؟ وكم يهتم حرمة هيئتهم ويخترق ستار اعتصابهم؟

فلماذا ينفعك الحسد يا أيها الحاسد الجاهل؟ وهل تظن أن هذه الخلال توصلك إلى أوطارك وآمالك؟ حاشا لله. إن هذه الخلال القبيحة لا تسديك

سوى التقلب على النار الدائمة في الدارين، ولا تجديك سوى قلق الفكر وعذاب النفس والتنهدات والحسرات، وتجعلك مضغة في أفواه الناس ومهملاً من الجميع.

ولا يخفي ما يترك الحسد والطمع من الشوائب الذميمة في الإنسان، وذلك نظير البغض الحقد والحنق والاختلاس وحب القتل والإضرار، وكل من هذه الأطوار الرديئة يترك وراءه أطواراً أخر أشد رداءة، إلى أن يصبح الحاسد مؤلفاً من كافة الأرواح الخبيثة. فلا بدع إذا كان الحسد يشبه الشجرة الهندية التي يسمونها المستحية، فهي كلما وصل غصن منها إلى الأرض ثبت وصار شجرة، وهكذا إلى أن تنقلب أخيراً إلى غابة عظيمة تعشو إليها طيور السماء، والحشرات تسكن في مقادمها.

فلا يوجد شيء أشد مقدرة على استعباد النفس من الحسد والطمع، فإن هذا الروح إذا تمكن من النفس، وثقها بحبال العبودية الخاضعة لسلطان الانفعالات، ومنعها من التمتع بأدنى لذة أدبية. فتبقى مرتجفة بين فواعل الشهوات كارتجاف العصفور بين مخالب العقاب ، فاقدة كل سلامة الحواس، إذ لا تعود ترى سوى تناثر شرر الاضطراب والارتباك، ولا تسمع سوى دوي أصوات القنوط والأكدار ولا تذوق سوى مرارة الأميال والآلام، ولا تشم سوى رائحة الاختلاط العصبي، ولا تلمس سوى خشونة الأشياء الغير مملوكة منها.

ومع كل ذلك فلا بأس من ترك مجال ضيق لقائد الحسد والطمع في أحكام التمدن، لأن هذا الروح يقود الناس إلى المغايرة، التي ينجم عنها فوائد جزيلة

لترقية الجمعية البشرية، نظير الهجوم على درس العلوم وتنشيط الأشغال وتنبيه القوى الاختراعية ونحو ذلك. ولكن يجب أن يرفق هذا القائد بالرضى والقناعة، ويكون خاضعاً له لكي يمتنع ضرر ذاك ويقوم نفع هذا، فتحصل المغايرة النافعة.

البخـــــــــل

هو ذا ضجيج عظيم آت من كافة أقطار الأرض. صراخ شديد يدوي تموجه في المسامع فأميلوا آذانكم يا قاصدي التفتيش، حملقوا بأعينكم لنرى ما هذه الضوضاء الآتية من بعيد، وعلى ذلك الصياح المرعب؟ ها قد بدأ يلوح لي أن فتنة كبرى تثور في العالم. نعم فتنة كبرى آخذة بالثوران. لأن أصوات لعنات وشتائم تتوارد إلى أذنى محمولة مع طلقات الضجيج. فما سبب هذا الافتتان العظيم، وعلى من يدور مداره؟ ألعل ذلك على البخل؟ لأن أكثر تلك اللعنات والمسبات تنطبق على اسمه كما تسمعون. نعم على البخل على البخل، ولا يوجد من يستحق نهوض العالم ضده نظير البخل، لأن البخيل يجتهد على الدوام أن يحشد أرزاق البشر في خزانته، ويحسر قوت العباد في جيبه، ولو أوجب ذلك خلل النظام العام واستعباد الأنام.

وهاك قائد البخل منتصباً لدينا تجاه الكرم، وهو قابض بيديه على ساعد دولاب المعاملات، وساعد قيام الحياة، فلنوجه خطابنا إليه قائلين:

ها قد نهضت المسكونة عليك يا أيها الروح الخبيث قائد البخل والشح. وها جميع الناس يقذفونك باللعنات والمسبات، فأنت مستوجب أن يحكم عليك بالخزل والرزال بدون تردد، لأنك تود مطلقاً أن يتغلق كل باب لتقدم الخلائق، وتنفتح كل سبل التقهقر أمامها. إنك لتخزن الأموال ولا تدع لها

منفذاً.أما تعلم أن العطاء ينهج طرق الخير ويغيث أخاك الجائع؟ وتكنز الدنانير والدراهم في أعماق الصناديق حذراً من أن يلامسها الهواء أو يمسها النور، والفقير في شر حالات التعاسة. أما تدري أن الدراهم قد صارت الآن محوراً لمدار عالم المعاطاه. وأن حجزها يضيق دائرة العلائق البشرية ويعيق تبادل المعاملات؟ إنك؟ أيها البخيل تطرد كل سائل ومحتاج ولو على فلس، وتميل عن كل عمل كريم أو سمة تقتضي السماحة والإحسان. أما تعرف أن العضد الاعظم لترتيب حياتك يؤخذ من مثل السائلين والمحتاجين؟ فهم يبنون دارك وحانوتك. وهم ينسجون ثوبك ورداءك. وهم يجهزون كل أدوات طعامك وشرابك. وهم يتسارعون إليك من كل الجهات ليحرسوك من وثبات المختلس وهجمات العدو. وهم يمدون أيديهم ليرفعوك لئلا تعثر بحجر رجلك. وإذا شبت النار في منزلك ألقوا أرواحهم لينقذوك وأولادك ويحموا أمتعتك. فلماذا تدوس أعناقهم إذا انطرحوا تحت قدميك يطلبون إسعافاً؟ ولماذا تعرض عنهم وتشتمهم إذا مدوا أيديهم إليك ليطلبوا ما يسد رمقهم من فضلات مالك؟ حتى إذا أمكن للإلحاح أن يقتلع من فولاذ يدك بارة واحدة شعرت بألم اقتلاع الضرس، ولماذا تعصي الأمر بإشباع الجائع وإكساء العريان؟ أما تخشى وقوعك في ثورتي الدنيا والآخرة؟ وكم تهجس على مضجعك في أمر التوفير، وتتصل به إلى حسابات وكميات تفوق طور الإدراك مرتقياً في سلسلة التضعيف والضرب حيث تقول في ضميرك: إنني من الغد سأشرع بتنقيص كمية اللحم والبقول والزيوت وبإجهاد الأولاد في تتميم الأعمال الخدمية اقتصاراً بهم عن الخدم. ولم أزل أنقص مقدار الطعام وأعود

الأولاد على الخدمة، حتى نستطيع أخيراً أن نعيش على النزر من الخبز والقليل من الجبن أو الزعتر، ونصبح قادرين على قضاء كل الاعمال الشاقة. وبهذا العمل يمكنني أن أجمع كل مال العالم، لأن درهما و درهما درهمان، ودرهمان ودرهمان أربع دراهم، وأربعة دراهم في أربع درهم ستة عشر ردهما، و 16 في 16 يساوي 256 و 256 في 256 يساوي 65536.. وهكذا ترتقي أيها الشحيح من المضروب إلى المضروب فيه إلى أن تبلغ الحاصل الأعلى، حيثما لا يوجد رقم، ولا يجري قلم، وحينئذ تأخذ نفساً وتقول: ها أنا مزمع أن أملك العالم بأسره، وأوقف كل دواليب الأشغال وأجعل الناس عبيداً لي.

نعم ستفعل هكذا يا هذا البخيل، ولكن بعد ألوف من السنين إذا لم تمت بداء الجشع، فليعش رأسك الكريم ولينجح مقصدك العظيم. ولا عتب عليك إذا فكرت في نفسك هكذا لأنك ترافق القمر في مشروعه. فكما أن هذا الجرم يخال أنه سيوقف دوران الأرض بعد عدد من ألوف ألوف السنين لا يحصى، وذلك بتأخير جاذبيته لحركتها ست ثوان في كل جيل، هكذا تخال أنت أيضاً أنك ستوقف حركة أشغال العالم بجذبك كل الأموال من أيدي الناس وتعود منفرداً بالسطوة والغنى بعد العمر الطويل.

فتبا لهواجسك وبعداً لمقاصدك وسحقاً لك. أما ترى كيف تخفق على البشر أجنحة الموت بينما يكونون غارقين في لجج مطامعهم وتأهباتهم وراتعين في حدائق أفراحهم ومسراتهم؟ أما تعلم أن السارق قد يأتيك من حيث لا تعلم؟ أما يلوح في رأسك الممتلئ من أفكار الثراء مساء فكر واحد بإمكان انحداره في حفرة الثرى صباحاً؟ ولماذا هذا البخل الكثير وذاك العناء العزيز؟

وهبك ملكت خزائن الملوك وجمعت كل ثروة العالم أليس مصيرك إلى الزوال والفناء وأنت حامل على ظهرك كل تلك الأحمال الثقيلة؟ وهل يمكنك

أن تمد عمرك إلى أمد أطول مما تقتضيه الطبيعة؟ وهل تستطيع أن تردع بقوة أموالك مسيرة المركبات إلى الانحلال؟ فسوف توجد راحتاك المنقبضتان على كل تلك الكنوز التي جمعتها بالوهم منبسطتين إشارة إلى خروجك من هذه الدنيا بلا شيء ، وربما لا تجزي من سيرتك التي شوهها البخل سوى اللعنة حتى من ابنك الحبيب الذي به سررت.

فلا يعاتب العالم إذن إذا أثار عليك الفتن يا قائد البخل وارتفعت أصواته ضدك، وتبادرت قواته إلى الفتك بك، لأنك أنت العدو المبين له ولكل مصالحه، وأنت المصر على هتك ستار هيئته، واستعباد قلوب أبنائه بحشرك أهم أدوات مداره. ومع كل هذا فلا بأس من ترك ظفر لك في جسد التمدن، لتكون مانعاً لهجوم التبذير الكثير الضرر، ولكن يجب أن تكون مقيداً بأوامر الكرم لكي تحصل الرتبة المطلوبة ما بين التبذير والبخل.

الضغيـــنة

من هذا الرجل المنتصب أمام عرش التمدن ذو الأسنان المكزوزة والأعين المتوقدة بالشرر؟ من هذا الواقف وقوف النمر المستعد إلى الوثوب على الفريسة؟ هل هذا هو قائد الضغينة؟ نعم هذا هو قاد الضغينة المستعد أن يغدر بكل من يمحضه السلام ويركن إليه.

فما أنت أيها الروح الحقود سوى عذاب أليم للأرواح، لأنك متى أوقعت أماراتك في أحد أعدمته الراحة والسكون وجعلته كالوحش الحائم على ما يفترسه. فلا ينام إلا على فراش الغضب، ولا يستيقظ إلا بأعين الانتقام ولا يروي إلا بكرع الدماء، ولا يجد في نفسه حركة حرة لأنه يقضي الليل والنهار مملوكاً من خلفه ومأسوراً لحب انتقامه وواقعاً في خطر ضياع قدره.

هكذا يعيش صاحب الضغينة عبداً وأسيراً لأطواره ومعادياً ومبتعداً عن معاشرة الذين يلمحون طلائع هجماته فيجتنبونه. فلا ريب إذن في أضرار هذا الروح على المجتمع البشري، إذ أنه يوقع النفار ما بين الناس ويبعدهم عن بعضهم البعض، ضدا لما يطلبه ميلهم إلى الالتئام في دائرة التمدن، توطئة للتعاضد في الانتفاع. فمن الواجب والحالة هذه أن يكون الصفح مرافقاً قائد الضغينة ورادعاً جماحه، كما يجب على الضغينة أيضاً أن ترى اندفاع الصفح في بعض الظروف، حذراً من انغلاق أبواب السلام أو انطلاق أشواط التهافت . ولكل وقت وأوان.

النميمة

ما لي أرى هؤلاء القوم يرشقون على هذا الشخص القبيح الوجه نظرات النفور والاشمئزاز، ويبعدون عنه كأنه جيفة نتنة أو جرب معد، وجميعهم يشيرون إليه بالبنان ويتآمرون. ولماذا كل واحد يظهر إشارات الخوف منه ويتمنى الابتعاد عنه؟ ولماذا قد أطبق الناس على اجتناب هذا الرجل المسكين، حتى لم يعد أحد راضياً أن يكلمه أو يلقى عليه السلام؟ فليت شعري هل هذا رجل النميمة؟ حيث لا يوجد من يستحق معاملة سيئة كهذه سوى النمامين.

نعم هو رجل النميمة وقائدها. ولذلك يتحاشاه جميع الناس ويبتعدون عنه غاية الابتعاد، حذراً من آثاره الردية وأطواره الذميمة. لأن دأبه أن يهتم حرمة الأسرار، ويكشف الستر عن معائب البشر، ويظهر كل الأعمال السائرة منهم سراً. حتى أنه يفعل هكذا مع أخص أصدقائه، وربما تعمد أن يصاحب أحداً ليطلع على خفياته بالاستيداع، ثم يذيعها بالنميمة. ولا يبالي من ارتداد وجعه على رأسه في أحوال شتى، وذلك عندما تستقر الخيانة عنده، فيستوجب لعنة

الجماعة، ويعاقب بالصد والجفاء. نظير ذلك الأفعوان الأسود الذي إذ يلسع تنسحق أنيابه ويسيل منها سمه فيمتصه فيموت.

فلا شك إذن بعظم أضرار هذا الروح الخبيث، وبكل عدل يجب طرده من عالم الآداب والتهذيب. وكسر شوكته بطرده من المجتمع الإنساني. وبكل حق ينبغي النفار عنه واجتنابه. إذ ما من أحد يرضى بهتك أسراره وخفاياته، ولا يوجد أشد على الإنسان من وقوع أعماله السرية في ألسنة العامة وإظهار عيوبه أمام الجمهور. ولو أمكن وجود إنسان خال من النقيصة لحق له أن ينتقد نقائص غيره، ولكن لامتناع وجود الكمال في الإنسان سقط حق الانتقاد عن الناس أجمعين، لكي لا يقال للمنتقد أنزع الخشبة من عينيك ثم انظر إلى القشة في عين سواك.

ولما كان السقوط المطلق القائد النميمة قد يفتح طريقاً لهجوم الأشرار إلى عمل اليعبو بدون خشية كشف النقاب عن مساويهم ليردعهم عن الكبائر بلجمه جماح الشهوات، كان الأفضل أن يبقى له صوت في آذان العموم لأجل التهديد، ولكن بشرط أن يكون زمامه محفوظاً في يد قائد الكتمان.

الكـــذب والنفـــاق

أما أنت يا قائد الكذب والنفاق فلا تعتبر إلا كهادم لمباني الآداب الإنسانية، ومفسد لصلاح الغريزة البشرية، ومستعبد لحرية الفطرة. لأنك متى أوقعت أحكامك على أحد، أحدقت فيه بلبالاً عظيماً ظاهراً وباطناً، إذ تجعله الخصم الألد لضميره كلما فتح فاه، وتبقيه أضحوكة في أفواه سامعيه، فتكسبه العار والفضيحة حتى إنه يعود متقلباً على جمر الندم ومشمولاً بقنوط النفس كلما

خلا في نفسه وتبصر بما انشأ لسانه من الأكاذيب والنفاق في مسامع الناس، وبما سيرد عليه من التكذيب والإذلال.فينثني مصمماً أن يحفظ لسانه من شين المين، ولكن غلبة الملكة لا تسمح له بذلك ما لم يحتمل مشقة عظمى، فيعيش أسيراً وعبداً لك يا قائد الكذب والنفاق.

ولما كان الطبع البشري يأنف ويستنكف جداً من تكلم الخلاف، ولا يميل إلى صدق المقال، وإثبات الحقيقة، كان الإنسان الذي لا يصدق بلسانه ولا يستقيم بجناحه مكروهاً حتى من نفس طبعه أيضاً، على أنه يرى تطبيقه مضاداً لطبيعته، فيكره نفسه.

فيجب على كل إنسان أن لا يخضع إلى حكم هذا الروح الشرير منذ نعومة أظفاره، حيثما يهون التعود على الخير أو الشر. وأن يرفض كل كذب ينسب إليه مهما كان بسيطاً، لأن الذي يبتدي بالصغائر قد تهون عليه الكبائر، والذي يفكر بالقليل يتصل إلى الكثير، لأن الفكر من شأنه أن يطير بأجنحة التصور إلى قبة فلك التصورات، حيثما لا يوجد نهاية ولا قرار.

وهكذا فلا جناح على ملك التمدن إذا كان يهلك كل الذين يتكلمون بالكذب، لأنهم يسعون بمملكته إلى الخراب، بما تترك ألسنتهم المنافقة من الأضرار الكلية والجزئية، كإثارة الفتن وإلقاء الفساد وتبغيض المحبين وإغراء ذوي الغفلة والسذاجة ونحو ذلك. فهذه جميعها أطوار تعارض مسير التمدن، وتباين آرائه التي لا تتفق والنفاق طرداً مطلقا، لعدم نفعه في شيء وإقامة الصدق والحق مكانه.

الخـــــيانـــة

ولما كانت الخيانة قائدة كل هؤلاء القواد وحاملة لواءهم الأسود، وأصلاً تتفرع عنه أكثر الخصال الناقصة والصفات غير الصافية، كان الواجب أن يحكم

عليها كما حكم على أولئك، وأن يعامل قائدها بالطرد المطلق نظير قائد الكذب:

لا عاش من للعهد خان خونـا ... وبئس وغد لا يصون صونـا

جرى أمامي الدهـر فاتبعته ... عسى أرى خلا فما وجدتـه

صحبت نذلاً يستـدر ودي ... وهو مولـع بنكـث عهدي

قد كان يدعو نفسه رب الوفا ... والآن في ذكـرى يهز الكتفا

أظهر لي الود ليجني زهـري ... وإذ تـولاه لوى بالظهـر

فصار قمحي عنده زوانـا ... ودرري أضحت له أدرانـا

عن مثل ذا داود قـد تنبـأ ... قد أكلوا خبزي وداروا العقبا

لا بارك الله بذي الخيانـة ... ولا رعى من ما له أمانـة

- 8 -
اليقظـــــة

وإذا أتم الفيلسوف كلامه حتى رأسه لدى المقام الملوكي ونزل من فوق الصخرة. وبينما كان السكوت سائداً على من في المسرح، لمعت بارقة تخطف الأبصار، وأعقبها رعد يزعزع أركان القلوب، فسقطت على الأرض ارتياعاً ودهشة.وبعد زوال هذه الوثبة الجوية نهضت من سقطتي لأرى ماذا جرى، فغشى نواظري ضباب التحير، ولبثت عديم الحركة لأنني لم أعد أشاهد شيئاً مما كان، إذ وجدت نفسي منفرداً في برية منخفضة لا نبات فيها ولا حيوان.

وعندما أجلت نظراتي في أقطار هذه الفلاة القفرة أخذتني رعدة الخوف والهلع وشملتني شمول الكمود والكآبة، وعدت حائراً في أمري. فسكون الموت كان يحوم على هذا القفر الوجوم، ولم يوجد فيه من الكائنات سوى أتربة تبعثرها أرجل الرياح، وحصباء توهم فراش بحر جاف، وصخور تشهد على قساوة الزمان. وكان الشفق كالحديد المحمي، يتطافأ على كور المغرب بمنظر يستفز الكروب ويستهز الرعشة. ولم يكن مسموعاً في هذا الغور الراسخ في حضن الوحدة سوى نعيب البوم وصراخ ابن آوي. وكلما كنت أثبت تأملي كان يتزايد في باطني حراك الكمد والكرب، وكلما أطلقت أنظاري إلى السماء لأنال تعزية رددتها ممتلئة من البهتة والجمود، لأنها ما كانت ترى سوى سحابات متوقدة تندفع من الجنوب إلى الشمال، طارحة على الأرض ناراً ودخاناً.

وبينما كنت أردد أفكاري في هذا المشهد الصامت، وأسرح نواظري في هذا البيداء المجدبة، وإذ تل مرتفع يلوح لي فسرت إليه وصعدت على قمته ووجهت وجهي إلى جهة المشرق، حيثما كان القفر يسبح تحت أعيني في تيار

الظلام. وإذا أصغيت بكليتي سمعت صوتاً يناديني من بعيد قائلاً (هذه برية الشهباء فلتبشر بقدوم الخير) فقلت في نفسي: من أين سيأتي الخير إلى هذه القفار المجدبة والساقطة من أعين العناية منذ ألف سنة فأكثر؟ إن في هذه البشرى ضرباً من المحال ثم التفت إلى وجهة الغرب لعدم اهتمامي بما سمعته، وإذ مد من الاخضرار يتموج من جانب الأفق وكأنه يهم أن يتدفق على كل تلك الإقفار اليابسة، فشملني العجب للحال، وأخذت أشخص في هذا المظهر العجيب ذي الجمال الغريب، وبعد أن تفرست قليلاً سمعت صوتاً يدوي من خلال الغمام وينادي قائلاً: (أبشرى أبشرى يا برية إرم القديمة، وافرحي وابتهجي يا شهباء سوريا ، فها هي العناية الملوكانية مقبلة إليك والمراحم السلطانية هاجمة عليك، فلا عاد يفترسك المحل، أو يفتك بك الإهمال). فلما سمعت هذا النداء الكريم طفقت أرقص من شدة سروري وفرحي، وقلت لا شك ولا ريب في قدوم الخير والرخاء إلى هذه الديار المستعدة لقبول كل إصلاح، لأنها قد وقعت تحت أنظار عناية حضرة ذي الشوكة والاقتدار عبد العزيز خان دام ملكه مدى الدوران، وقد تشرفت بنعمته وجودته.

ومما شملني من الاندهاش، أثبت نظري في متن الأفق، وبينما كنت شاخصاً ببصري فيه رأيته قد استحال إلى بحر من النور الساطع، وأخذ يتلألأ نظير الشمس في السماء الصاحية. وإذا لم أعد أستطيع النظر إلى هذا المشهد المنير، أغمضت عيني على غشاوة الانبهار، وأخذت أضرب في أودية الهواجس. ولما فتحت أجفاني وجدت نفسي مضجعاً على فراش النوم تحت سماء اليقظة.

(تم)

******